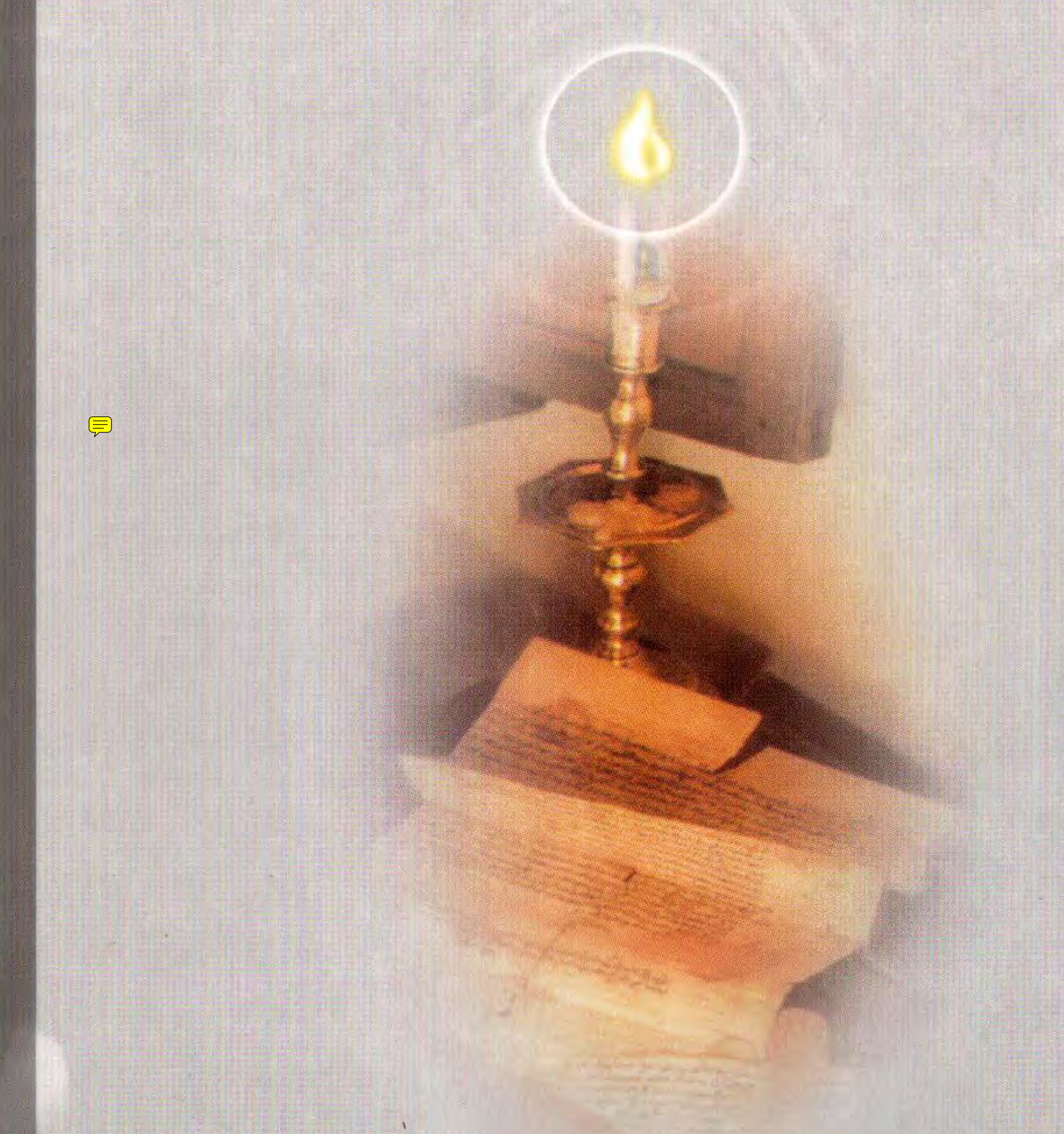
الدكتور شوقي أبو خليل

نشأة الدولة الصفوية

سليم الأول العثماني و إسماعيل الصفوي







تشالديران:سليم الأول وإسماعيل الصفوي/ شوقي أبو خليل .-دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٥ .- ١٠٢ص: خرائط، صور؛ ٢٠سم.(المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام).

١-٩٥٦,٠٦ خ ل ي ت ٢- العنوان

٣- أبو خليل ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام

جالديران

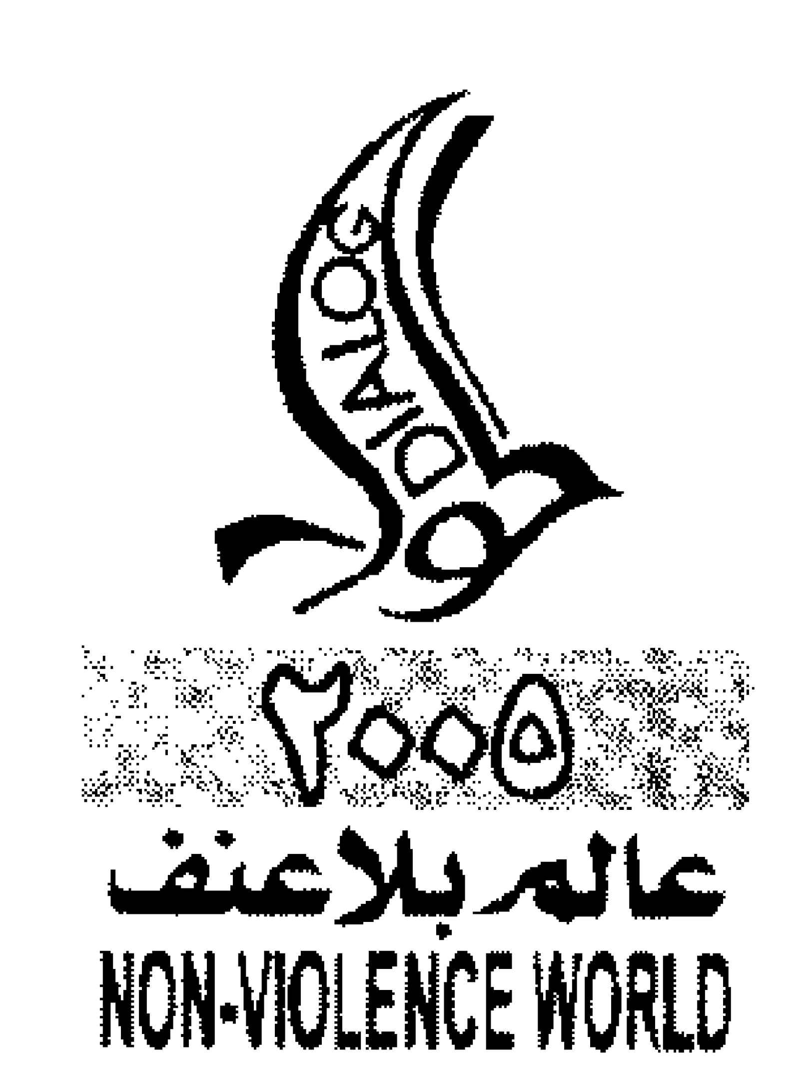
سليم الأول العثماني و اسماعيل الصفوي

الدكتور شوقي أبو خليل



آفاق معرفة متجدّدة

الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٥
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ١٨٥٠,٠٣١
الرقم الدولي للسلسلة: ISBN:1-57547-500-6
الرقم الدولي: ISBN:1-59239-421-3
الرقم الموضوعي: ٩٣٠
الموضوع: تاريخ العرب والإسلام
السلسلة: المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام
العنوان: تشالديران
التأليف: الدكتور شوقي أبو خليل
التنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق
عدد الصفحات: ١٠٤ص
قياس الصفحة: ١٤×٢٠ سم
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة



دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦ هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com

الطبعة الأولى
جمادى الأولى ١٤٢٦هـ
حزيران (يونيو) ٢٠٠٥م

المحتوى

الموضوع الصفحة

مُقدِّمة

بسم الله، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداه، وبعد..

فالحمد لله أولاً وآخراً، فقد تمَّت هذه السِّلسلة: (المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام) بهذا الجزء الذي سيتناول أحداث معركة تشالديران، وما قبلها وما بعدها، ونتائجها المؤلمة التي أضرَّت بالإسلام والمسلمين، وبالعربيَّة لغة القرآن الكريم عالميّاً وإنسانيّاً، لتحالف الدَّولة الصَّفويَّة مع الدُّول الأوربية الصَّليبيَّة ضد الدَّولة العثمانيَّة، للقضاء على ما أسمته (العدو المشترك).

إنَّ الحرب التي بدأتها الدَّولة الصَّفويَّة ضد الدولة العثمانيَّة حرب استنزاف للقوى الإسلاميَّة، فالدَّولة العثمانيَّة التي تأسَّست سنة ١٢٩٩م؛ لم تركِّز جهودها على العالم الإسلامي مطلقاً، فديناً وعقلاً لا مبرر، ولا سبب لفتح جبهة عليه،

فعملت في القارة الأُوربيَّة، ولو اشتغل الصَّفويُّون في نشر الإسلام في قارة آسية، لكان خيراً كبيراً لهما معاً، ديناً ودنيا.

ولكن حينما يصبح المذهب ديناً تهلك الأُمَّة وتَحُلُّ بها الكوارث، مع أنَّ المذهب جزء والدِّين كلٌّ، والعاقل المخلص لا يجعل الجزء يطغى على الكلِّ ويغيِّبه، فالولاء للدين وليس للمذهب، وهنا يهون الاختلاف ولا يصبح خلافاً يمزِّق وحدة الصَّف.

لقد وجدت الدُّول الأوربيَّة ضالتها المنشودة في الدَّولة الصَّفويَّة، التي ارتمت بشكل غير معقول، أو مسبوق بأحضان الغرب، فكانت لقمة سائغة سهلة للأُوربيِّين، الذين حوَّلوا الاتِّجاه مئة وثمانين درجة، حينما أشغلوا الدَّولة العثمانيَّة بعدوٍّ جديد في أقصى الجنوب الشرقي، بعد أن بقيت حروبهم لأكثر من قرنين في أقصى الشمال الغربي، في أُوربة.

وما سنختم به هذه السِّلسلة مصدره عدد من الكتب أهمُّها كتابان:

- الأوَّل كتاب (إيران وعلاقاتها الخارجيَّة في العصر الصَّفوي)، تأليف نصر الله فلسفي، كُتِبَ باللُّغة الفارسيَّة بعنوان (سياست خارجي إيران در دوره صفويَّة)، والمؤلِّف كما جاء في تقديم الطَّبعة العربيَّة، والذي كتبه الدكتور محمد فتحي يوسف الرَّيس مترجم الكتاب سنة ١٩٨٩م، يعدُّ من أفضل الأساتذة

المعاصرين الذين كتبوا عن العصر الصَّفوي في إيران، وقد أتاح له عمله مستشاراً ثقافياً لإيران في إسبانية وإيطالية فرصة الاطلاع على ما تحتويه مكتبات هاتين الدَّولتين من وثائق ومخطوطات وكتب استفاد منها في تأليف هذا الكتاب.

- والكتاب الثَّاني (التَّشيُّع العلوي والتَّشيُّع الصَّفوي) للشَّهيد الدكتور علي شريعتي، الذي ميَّز بين محبَّة آل البيت رضوان الله عليهم، وبين التَّشيُّع الصَّفوي، وشنَّ عليه هجوماً علميّاً قاسياً، مسجِّلاً تغمَّده الله برحمته ملاحظات مصيريَّة بحقِّ الدولة الصَّفويَّة، سترد في مكانها.

ملاحظة أخيرة في هذه المقدمة..

المتتبِّع لتواريخ مقدِّمات الأجزاء الخمسة الأخيرة، التي أتمَّت أجزاء هذه السِّلسلة، يرى تواريخها متقاربة جداً:

١- حطِّين: ١٥ رجب الفرد ١٤٢٥هـ/ ٣٠ آب (أُغسطس) ٢٠٠٤م.

٢- عين جالوت: ١ شعبان ١٤٢٥هـ/ ١٥ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٤م.

٣- أنقرة: ٢٢ شعبان ١٤٢٥هـ/ ٦تشرين الأوَّل (أكتوبر) ٢٠٠٤م.

٤- فتح القسطنطينيَّة: ٢٠رمضان ١٤٢٥هـ/ ٢تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٤م.

٥- تشالديران: ٢٢ شوال ١٤٢٥هـ/ ٤ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٤م.

والواقع أنَّ هذه الأجزاء بدأ الإعداد لإصدارها تباعاً في الشهر الأول من سنة ٢٠٠٠م، وكانت أوراق كلٍّ جزء على حدة، وأُجِّلت لوقت آخر، لإتمام موسوعة الأطالس الإسلاميَّة، وقد اكتملت، ولما نفدت الطَّبعة الأخيرة من سلسلة المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام، من الجزء الأول حتى الجزء الخامس عشر، قرَّرت إدارة الدَّار النَّاشرة، دار الفكر، مشكورة، إعادة تنضيدها من جديد، لتخرج بأُنموذج جديد، وإخراج واحد، فشحذت الهمَّة على نقل الأوراق والبطاقات من المسوَّدات إلى أوراق أنيقة بمقياس واحد، مع رسم المصوَّرات وانتقاء الصُّور المناسبة، ودفعت للطِّباعة كي تأخذ هذه الأجزاء سمة الأجزاء السابقة، التي بدأت بالصُّدور منذ سنة ١٩٦٩م، فكانت تواريخ مقدِّمات الأجزاء الأخيرة متقاربة، وهي تواريخ نسخها وتصويبها.

نحمد الله على ما وفَّقنا إليه من تتميم هذه السِّلسلة بعد انقطاع طال انتظاره، وتلقَّينا رسائل من مختلف أرجاء الوطن العربي والعالم الإسلامي تشجِّع على استكمالها.

واقترح بعضهم جمع مصوَّرات هذه السِّلسلة في أطلس برأسه، فأعلمناهم أنَّها موجودة في الطَّبعة الجديدة لأطلس التاريخ العربي الإسلامي ملوَّنة.

وعملاً بالحديث الشريف: «لم يشكر الله من لم يشكر النَّاس»، أُقدِّم جزيل شكري وامتناني لدار الفكر متمثِّلة بمديرها العام، الأُستاذ الفاضل محمد عدنان سالم، الذي أولى كتبي كلَّها، وقد تجاوزت السَّبعين كتاباً، عنايته الخاصَّة.

وشكري لدار الفكر وتقديري، وامتناني لها على الحفل التكريمي الذي أقامته لي بدمشق بتاريخ ٢٥ نيسان (أبريل) ٢٠٠٤م، وإصدارها في هذه المناسبة كتاباً عنِّي، تحت عنوان: (شوقي أبو خليل مقالات وبحوث مهداة إليه)، حرَّره - مشكوراً - وأشرف على تنسيق موضوعاته وترتيبه، أخي وزميلي الدكتور نزار أباظة.

فشكري لكلٍّ الإخوة الأحبَّة.

دمشق الشَّام ٢٢ شوَّال ١٤٢٥هـ

٤ كانون الأوَّل (ديسمبر) ٢٠٠٤م

الدكتور شوقي أبو خليل

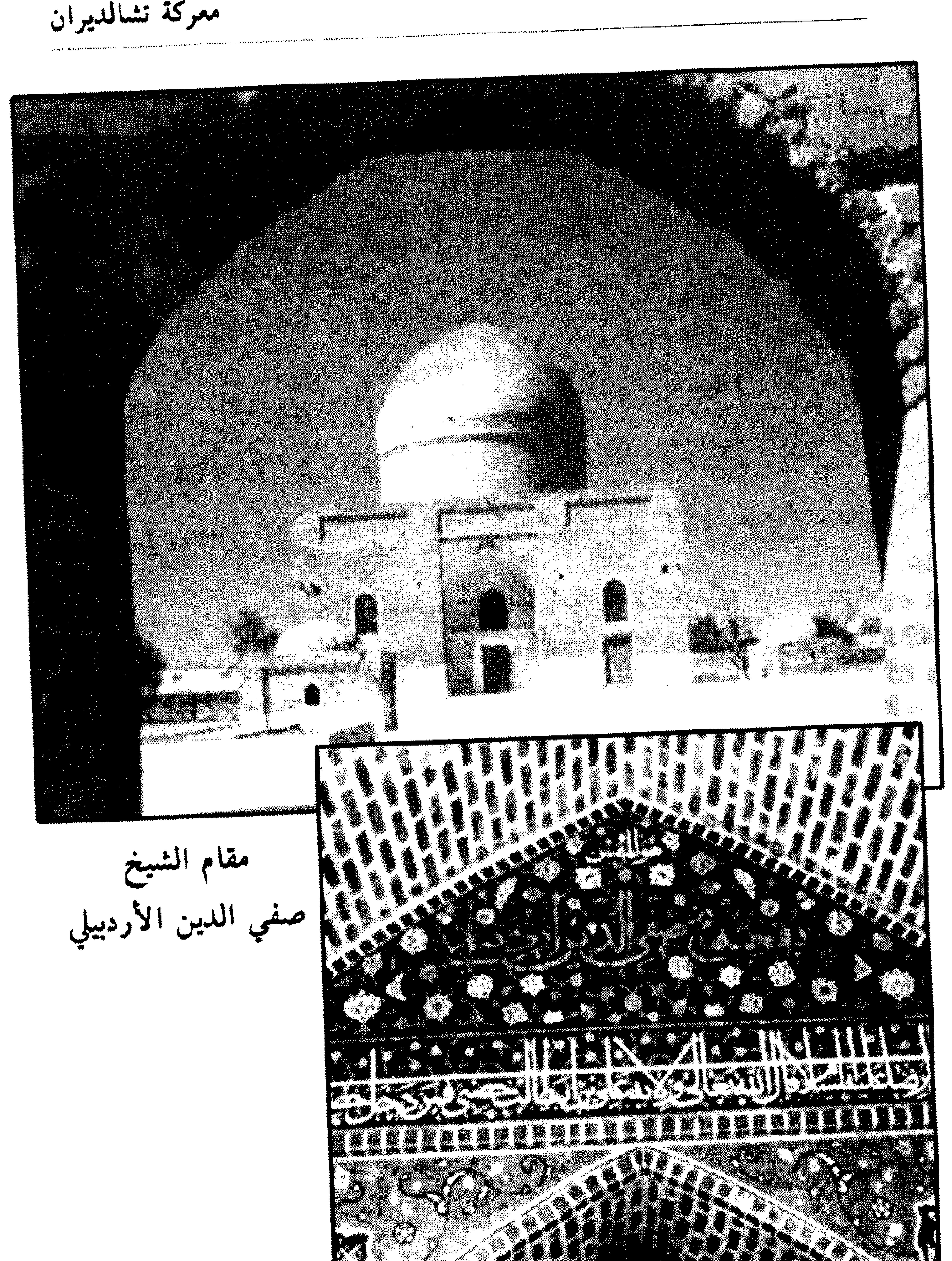
Shawki @ Fikr. Com

❊ ❊ ❊

الصَّفويُّون

ينتسب الصَّفويُّون إلى الشيخ صفي الدِّين إسحاق الأردبيلي (٦٥٠-٧٣٥هـ/ ١٢٥٢م-١٣٢٤م)، وتجمع المصادر كلُّها أنَّه حتَّى قيام الدَّولة الصَّفويَّة عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م، كان شافعي المذهب، ولم يدَّعِ أنَّه ينتسب إلى آل البيت رضوان الله عليهم، ولكن الكتب التي دُوِّنت في عهد الشَّاه إسماعيل الصَّفوي مؤسِّس الدولة، أو تلك التي كتبت بعده، وضعت له نسباً إلى الإمام موسى الكاظم، الإمام السَّابع للشِّيعة الجعفريَّة، أي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

ويعتزُّ الفُرْس بالدَّولة الصَّفويَّة اعتزازاً كبيراً، ويصوِّرونها على أنَّها حقَّقت حلمهم في الوحدة والسِّيادة والقوميَّة، وأنَّها أول دولة فارسيَّة تحكم بلادهم بعد استعمار طويل أو حكم أجنبي مستمر منذ الفتح العربي الإسلامي، مع أنَّه لو اتَّخذنا ما يقولون عن نسبهم، لقلنا: إنَّهم من أعرق قبيلة عربيَّة، وهي قريش، وتصبح عروبة الصَّفويِّين أمراً لاشك فيه ولا مراء، ويكون



مقام الشيخ
صفي الدين الأردبيلي

وواجهة المدخل

حكمهم بذلك استمراراً للحكم العربي الإسلامي لبلاد فارس[١].

ويؤيِّد عدم انتسابهم إلى آل البيت ما كتبه رشيد الدِّين فضل الله، الوزير المشهور لغازان، خان المغول، ثمَّ لخليفته (أُولجايتو) في رسالته لابنه أحمد حاكم مدينة أردبيل، حيث يوصيه بالشيخ صفي الدِّين الأردبيلي، وليس فيها ما يشير إلى انتساب صفي الدِّين إلى آل البيت، وإن كان يذكر علو منزلته في الدِّين والتَّصوُّف، وألَّف أحمد كروي كتاباً يثبت فيه عدم انتسابهم لآل البيت، فالأُسرة الصفويَّة كانت تتكلَّم الأذريَّة، أي اللغة التُّركيَّة المحلِّيَّة في أذربيجان، ممَّا يرجِّح أنَّ صفي الدين شاب تركي، وانتسابهم فيما بعد لآل البيت ادّعاء لتثبيت ملكهم، وإضفاء الشَّرعيَّة على حكمهم حتَّى لا ينازعهم فيه منازع، وكأنَّهم يقولون للنَّاس: إنَّهم أحقُّ بتولِّي السُّلطة من أبناء جنسهم العثمانيِّين الذين أقاموا لهم دولة في آسية الصُّغرى.

وفي عصر الصَّفويِّين حُوِّلت فارس إلى دولة كلُّ ما فيها تركي أو للعناصر التُّركيَّة، حتَّى ضاع فيها الفرس وأصبحوا غرباء،

---

(١) إيران وعلاقاتها الخارجيَّة في العصر الصَّفوي، المقدِّمة ج وما بعدها.

لذلك يجزم صاحب كتاب: (عالم أراي صفوي) بأنَّ صفي الدِّين الأردبيلي كان تركياً، كما كانت التُّركيَّة لغة دواوينهم ومجالسهم، ولا صحَّة في انتسابهم إلى آل البيت، ولم يعترف بفارسيتهم.

وحينما مرَّ تيمورلنك بأردبيل بعد معركة أنقرة سنة ٨٠٤هـ/١٤٠٢م، اشترى ما حول أردبيل من مزارع وضياع وأوقفها على زوايا الصَّفويِّين وتكاياهم في أردبيل، ومنح خَرَاج تلك البلاد للصَّفويِّين حصراً، وهكذا اجتمعت لهذه الأُسرة كلُّ مقوِّمات الرِّئاسة والزَّعامة دون مشقَّة، وجعل كلَّ من يلتجئ إلى زواياهم أو حمايتهم في أمان، حتَّى ولو كان من أعتى الجناة، أو أخطر الأشقياء، وشكَّل المريدون قوَّة ضاربة هي عصب الحركة الصَّفويَّة، عرفوا باسم (القزلباشيَّة)[١].

تولَّى جنيد حفيد صفي الدين زعامة الصَّفويِّين، وحمل لقب سلطان، ولكن ميرزا جهانشاه السَّلجوقي ملك إيران، أجبره على الرَّحيل من أردبيل إلى ديار بكر، التي كان يحكمها حسن بك بن

---

(١) أي لابس العمامة الحمراء، وهي التي أصبحت شعار الصَّفويِّين، ادّعى حيدر ميرزا أنَّ الإمام علي رضي الله عنه جاءه في المنام، وصنع له عمامة من الصُّوف الأحمر، بها اثنتا عشرة ثنيَّة طوليَّة، تشير إلى أئمة الشِّيعة الاثني عشر.

علي بن قراعثمان آق قويونلو التُّركماني[١]، فاستقبله واستضافه ثلاثة أعوام، وزوَّجه أُخته حليمة سلطان.

عاد السُّلطان جنيد إلى مقرِّه في أردبيل، ولكنَّه قُتِل وهو يحارب السَّلاجقة في إقليم شروان[٢]، فلم يسكت حسن بك آق قيونلو على مقتل صهره، فتوجَّه إلى تبريز وأسر ميرزا جهانشاه السَّلجوقي، وضم تبريز إلى ملكه، وجلس حيدر بن جنيد في أردبيل حاكماً بمساعدة خاله حسن بك الذي زوَّجه من ابنته (عالم شاه بيكم)، وهي من أُمٍّ مسيحيَّة اسمها تيودورا، أبوها كالوجوهانس، وهو شقيق ديفيد كومنبنوس إمبراطور طرابزون الأرمني آنذاك، وعُرِفت باسم (دسبيناخاتون)، وكانت أُختها متزوجة من كاترينو زينو سفير دولة البندقيَّة ومبعوثها لدى السُّلطان يعقوب بن حسن بك آق قويونلو، وقد أنجبت تلك السَّيِّدة (تيودورا) بنتاً من السُّلطان حسن كان اسمها (مارتا)، أمَّا اسمها بعد زواجها من حيدر ميرزا فهو حليمة بيكم آغا، واشتهرت باسم (عالم شاه بيكم)، وقد أنجبت من حيدر ميرزا ثلاثة أولاد، هم: علي ميرزا، وإبراهيم ميرزا، وإسماعيل ميرزا[٣].

(١) آق قويونلو: تعني أصحاب الخراف البيضاء.

(٢) حول مدينة باكو الأذريَّة.

(٣) إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصَّفوي، المقدمة يج.

وكان لهذا الزواج تأثير خطير على الإسلام في إيران، واختيار المذهب الجعفري الذي أعلنه الشاه إسماعيل الصفوي منذ اعتلائه عرش إيران، وهذه المصاهرة تفسّر التقارب الشديد بين الصَّفويِّين والدُّول الأوربية المسيحية، كروسية القيصريَّة، بل أُوربة كلِّها، وتحالفهم ضد الدولة العثمانية السُّنيَّة، التي أخذت على عاتِقها الدِّفاع عن الإسلام والدُّول الإسلاميَّة آنذاك، وأدّى هذا التقارب والتحالف إلى إضعاف الدولة العثمانية، وإنهاك قواها في حروب ضارية مع الصَّفويين من جهة الشرق، ومع الأوربيِّين من جهة الغرب، حتَّى انهارت الدَّولة العثمانيَّة واقتُطِعَت أقطارها الإسلاميَّة، ليستولي عليها الغرب المسيحي ويقسِّمها بينه إلى مستعمرات ظلَّ يحكمها نحو مئة عام أو أكثر، بينما أدَّى انهيار إيران نفسها إلى اقتطاع أجزاء كبيرة منها استولى عليها الرُّوس وضمُّوها إلى بلادهم، ومن ثَمَّ ضياع بلاد المسلمين في وسط آسية، مثل: أُوزبكستان وتركستان وتاجيكستان وقيرغيزية، التي استولى عليها القياصرة الرُّوس.

وحينما سار السُّلطان حيدر إلى شيروان شاه للثّأر لأبيه قُتِل كما قُتِل أبوه.

ويُعَدُّ الشَّاه إسماعيل، الابن الثَّالث لحيدر بن جنيد، حفيد الشَّيخ صفي الدين، المؤسِّس لدولة الصَّفويِّين، وقد اتَّخذ اللُّغة الفارسيَّة لغة رسميَّة، والمذهب الجعفري مذهباً وحيداً في دولته،

لذلك أحرق مخالفيه، وقتل عشرات الأُلوف الذين رفضوا آراءه، ودخل تبريز سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م، وجلس على عرش جدِّه لأُمِّه حسن بك آق قويونلو، عرش من الجماجم، وعلى أنهار من الدِّماء، دون حرمة لدم المسلم من المسلم، والغلو للمذهب، ولحقده العجيب دخل بغداد في العشرين من جمادى الثَّانية سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م، وجعل مولاه حسين - خادمه الخاص - خليفة الخلفاء، ولقَّبه أبا منصور، استهزاء بالمنصور العبَّاسي وخلفائه العباسيِّين، ونبش قبر الإمام أبي حنيفة النُّعمان، وأخرج عظامه وأحرقها، ويقال: إنَّه دفن مكانه كلباً لبضعة أيَّام(١).

أثار هذا الحادث غضب العثمانيِّين، وأرسل السُّلطان سليم القاضي خليل طالباً من الشَّاه إسماعيل تفسيراً لهذا العمل القبيح، ويطلب منه الكفَّ عن لعن الخلفاء الثَّلاثة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

وكان ردُّ الشَّاه إسماعيل الصَّفوي على رسالة السُّلطان سليم: «إن شاء الله سوف نقطع رأسك التَّعس بقوَّة ذراع فاتح خيبر أمير المؤمنين عليه السَّلام، ونرسله إلى ملك البرتغال»(٢).

---

(١) إيران وعلاقاتها الخارجيَّة في العصر الصَّفوي، المقدِّمة.

(٢) عن: عالم أراي صفوي ٤٧٣، واختار ملك البرتغال لما عُرِف عنه من حقد وعداء للدَّولة العثمانية السُّنيَّة.

ومع هذه المواقف والتَّزمُّت كان الشَّاه إسماعيل شارباً للخمر، مدمناً عليه، فحينما أسر أمير قلعة مرو (شاهي بك) عام ٩١٦هـ، أمر بسلخ جلده، وحشاه بالقش، وأرسله إلى السُّلطان العثماني حامي السُّنَّة والأتراك الذين ينتمي إليهم شاهي بك، أمَّا طاسة جمجمته فقد أمر بطلائها بالذَّهب، وجعلها قدحاً يشرب منه الخمر[١].

وهكذا.. يعدُّ الشَّاه إسماعيل الصفوي الابن الثالث لحيدر بن جنيد حفيد الشَّيخ صفي الدين المؤسِّس لدولة الصَّفويِّين، الذي استولى على شيروان، ثم هزم آق قيونلي في شرور بالقرب من نخشيفان[٢] على نهر أراكس، واتَّخذ تبريز عاصمة له، واستولى على إيران كلِّها، وما هي إلاَّ سنوات حتَّى امتدَّت دولته من نهر جيحون (أمودارية) إلى البصرة (شط العرب)، ومن أفغانستان إلى نهر الفرات، وهكذا صارت الدَّولة الصَّفويَّة الشِّيعيَّة على حدود الدَّولة العثمانيَّة السُّنِّيَّة، فكان من جرَّاء هذه المباينة، وقيام الصَّفويِّين بنشاط واسع لنشر مذهبهم في الأناضول، أن قامت حرب طاحنة بين العثمانيِّين بقيادة سليم الأول،

---

(١) عن: عالم أراي عبَّاس ٣٨.

(٢) نخشيفان تابعة اليوم لأذربيجان، على الرغم من أن أراضيها منفصلة عنها بلسان تحكمه أرمينية.

والصفويين بقيادة الشَّاه إسماعيل الصَّفوي، وهذه هي الأسباب غير المباشرة - الأسباب البعيدة - لمعركة تشالديران.

الصَّفويُّون (الحاضرة تبريز ثمَّ أصفهان):

الشَّاه إسماعيل الأوَّل بن حيدر بن جنيد ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م

طهماسب الأوَّل بن إسماعيل ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م

إسماعيل الثَّاني بن طهماسب ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م

محمد خدابنده بن طهماسب ٩٨٥هـ/ ١٥٧٦م

سلطان أمير حمزة: (بضعة أشهر)

عبَّاس الأوَّل الكبير بن محمد خدابنده ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م

صفي الأول بن صفي ميرزا بن عبَّاس ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م

عبَّاس الثاني بن صفي الأول ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م

سليمان الأول (صفي الثاني) ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م

حسين الأوَّل بن عبَّاس ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م

طهماسب الثَّاني بن حسين الأوَّل ١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م

عبَّاس الثَّالث بن طهماسب ١١٤٤هـ/ ١٧٣١م

سليمان الثَّاني بن ميرزا محمد (حكم أربعين يوماً)

١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م

إسماعيل الثَّالث (جدُّه لأُمّه حسين الأوَّل) ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م

حسين الثَّاني بن طهماسب ١١٦٦هـ/ ١٧٥٢م

محمد شاه أبو الفتح بن حسين[١] ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥م

ثم حكم إيران: الأفغانيُّون، ومن بعدهم الأفشاريون، ثم البختاريون، ثمَّ الزّنديُّون، ثم القاجاريُّون، ثم البهلويُّون، حتَّى قيام الثورة الإسلامية في شباط ١٩٧٩م.

❊ ❊ ❊

(١) معجم الأنساب والأُسرات الحاكمة، زامباور ٣٩٠، الدُّول الإسلامية، ستانلي لين بول ٥٧٦.

علاقات الصفويِّين
مع أوربة

مع إسبانية والبرتغال

ابتدأت العلاقات الصَّفويَّة مع إسبانية والبرتغال منذ عهد الشَّاه إسماعيل الأوَّل، فبعد أن فتح محمد الفاتح سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م القسطنطينيَّة، فتَّش الأُوربيُّون عن طريق توصلهم إلى الهند لتستمر تجارتهم مع جنوب شرق آسية، وتمكَّن بارتلميو دياز الالتفاف حول رأس العواصف (رأس الرَّجاء الصَّالح) سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م، ودخل إلى المحيط الهندي، ولكنه لم يصل إلى الهند، وبعد اثني عشر عاماً ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨-١٤٩٩م استطاع البحَّار البرتغالي فاسكودي غاما الوصول إلى الهند عن طريق رأس الرَّجاء الصَّالح، وتمكَّنت البرتغال إنشاء مستعمرات لها في الهند، وأغلب مناطق جنوب شرق آسية.

وفي سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م وصل البحَّار البرتغالي ألفونسودي إلبوكرك ميناء عدن، ثمَّ إلى جزيرة هرمز ذات الموقع الهام،

وسهَّل عليه استعمارها بسبب التَّفُّوق في التَّسليح، حيث المدافع والبنادق والأسلحة النَّاريَّة، وفي سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م توجَّه للاستيلاء على ميناء عدن، ومكة المكرمَّة، ولكنه لم يتمكَّن من تحقيق هدفه، فعاد إلى المستعمرات البرتغاليَّة في الهند، حيث جاءه سفير من قبل الشَّاه إسماعيل الأول الصفوي، وعقد معه معاهدة صداقة، بالنبود التَّالية[١]:

١- تقوم القوّات البحريَّة البرتغاليَّة بمساعدة الحكومة الصفوية بإخماد الانقلابات التي تحدث على سواحل بلوجستان ومكران[٢].

٢- تقوم القوَّات البحريَّة البرتغاليَّة بمساعدة الحكومة الصفويَّة بغزو البحرين والقطيف.

٣- تتحد الحكومتان الصفويَّة والبرتغاليَّة في حربهما ضد الأتراك العثمانيين.

وتغاضى الشَّاه إسماعيل عن جزيرة هرمز، ووافق على أن يكون أمير هرمز بعد ذلك تابعاً لملك البرتغال، ويدفع له الخَرَاج، ولا تتدخَّل الدَّولة الصَّفويَّة في أُمور تلك الجزيرة.

---

(١) إيران وعلاقاتها الخارجيَّة في العصر الصَّفوي ١٤ وما بعدها.

(٢) بلوجستان ومكران جنوب شرق إيران، شمال خليج عُمان.

وفي عهد الشَّاه محمد خدابنده بن طهماسب الأول، استولى فيليب الثَّاني ملك إسبانية على البرتغال سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م، وبقيت تابعة لها حتَّى سنة ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م، وكان فيليب الثاني شديد التَّعصُّب للمذهب الكاثوليكي، فأرسل سفيراً إلى الصَّفويِّين ليمنح الشَّاه الصَّفوي الكاثوليك حرِّيَّة دينيَّة في كلِّ أرجاء دولته، وألاَّ يكفَّ يده عن عداوة العثمانيِّين وقتالهم، وأن يمنح الرَّعايا الإسبان امتيازات تجاريَّة.

وفي عهد الشَّاه عبَّاس توالت الرَّسائل إلى ملوك أُوربة وحكَّامها، واشتملت على فتح أبواب الصَّداقة، لكراهيته للعدو المشترك لهما وهو العثمانيُّون، وطلب من إمبراطور ألمانية وبابا رومة، وسائر حكام أوربة إلغاء أيِّ معاهدة صداقة مع العثمانيِّين، أو اتِّفاقية تجاريَّة، ونصح حكام أُوربة بحلِّ مشكلاتهم الدَّاخليَّة، والمسارعة لعقد معاهدات صداقة ومودَّة لهزيمة العدو المشترك، وتعهد بتقديم ستِّين ألف مقاتل بكامل جاهزيتهم للوقوف معهم ضد السُّلطان العثماني، فهو يكره الحرب الدِّفاعيَّة ويمقتها، ورأى أنَّ القضاء على العثمانيِّين واجبٌ، ولا يتم ذلك إلا بالهجوم فوراً عليها من الشَّرق والغرب.

وتعهد بفتح كلِّ الدولة الصفوية أمام التبشير، وتشييد الكنائس دون أيِّ موانع، إذا اتَّحدت معه أوربة ضد العدو المشترك، ويوم الخميس ١٥ ذي الحجة ١٠٠٧هـ/ ٩ حزيران

(يونيو) ١٥٩٩م أرسل بعثة من أصفهان توجَّهت إلى أوربة، وعلى رأسها الجاسوس البريطاني (أنتوني شيرلي) مع الهدايا الثَّمينة، وقدَّم الشاه عباس خاتمه الذَّهبي إلى السِّير أنتوني وقال له: «يا أخي، إنِّني أقبل أيَّ شيءٍ توقَّعه بهذا الخاتم، حتَّى ولو كان يساوي سلطنتي كلَّها»، ثمَّ قبَّل وجهه، وأخذ بيد أخيه (روبرت شيرلي)، ووعده بأن يعامله كأخ له في أثناء غياب أنتوني[١].

زارت البعثة قيصر روسية في موسكو، وزارت النَّروج، ومنها أرسلت رسائل إلى بريطانية، وإلى ألمانية، وإلى براغ عاصمة بوهيمية، ثمَّ قصدت البعثة إيطالية، وفي رومة استقبل البابا (أنتوني شيرلي) الذي شرح له أهداف الشَّاه عبَّاس من إنشاء اتِّحاد ضد العثمانيِّين، ووعده أن يمنح الشَّاه الصَّفويُّ للمبشِّرين والقسس الكاثوليك حرِّية كاملة في كلِّ أنحاء الدَّولة الصَّفويَّة[٢].

تابعت البعثة مهامها فقابلت ملك إسبانية بحفاوة كبيرة، حتَّى تنصَّر بعض أفراد البعثة، وفي منتصف عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م تحرَّكت سفينة من لشبونة لإعادة البعثة إلى ميناء هرمز، عن طريق رأس الرَّجاء الصَّالح، بعد تنفيذ مهامها في أوربة.

---

(١) إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصَّفوي ٢٧.

(٢) إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصَّفوي ٣٢.



روبرت شيرلي

يرتدي الملابس الإيرانية دائماً ويضع على رأسه عمامة القزلباشيَّة، ولأنَّه مسيحي فقد كان يضع عليها صليباً صغيراً، كما ثقب إحدى أُذنيه وعلَّق فيها حلقاً به ماسة كبيرة تتلألأ.

وفي أوائل سنة ١٠١٠هـ/١٦٠١م أمر فيليب الثالث ملك إسبانية نائبه في الهند أن يرسل بعثة تبشيريَّة، تكوَّنت من عدد من القسس، منهم: جيرومينو دي كروز، وكريستو فولودي سبريتو سانتو (ذو الرُّوح المقدَّسة)، وأنطونيو دي جافيا، فاستقبلوا بالتَّرحاب البالغ، ووافق الشَّاه عباس على إقامة دير وكنيسة، بل إنَّه دفع من خزانته تكاليف تزيينها، وما تحتاجه من قيشاني[1]، وأكَّد وجوب قيام ملوك أوربة بالدُّخول في حرب ضد العثمانيين.

وكان الشَّاه عبَّاس ينحني احتراماً لصورة إمبراطور ألمانية التي وضعها أعلى مدخل حجرته الخاصَّة، كلما دخل إليها، لمجرَّد أنَّه أرسل له رسالة يتعهد بها بألاَّ يعقد صلحاً مع العثمانيِّين، فإلى هذا الحدِّ بلغ احترامه لمن يحارب العثمانيِّين[2].

واعترف الشَّاه عباس أنَّ انتصاراته على العثمانيِّين كانت بمساعدة الدُّول الأُوربيَّة الصَّليبية التي كانت تساعده حينما كانت تضغط على العثمانيِّين بحروب في أقصى الشَّمال الغربي للدَّولة العثمانيَّة، فيستغل هذا الموقف في أقصى الجنوب الشَّرقي، وهذا كان السَّبب الأول والأخير لتوقُّف فتوحات العثمانيِّين في

(١) القيشاني: البلاط المنمنم المزخرف الذي اشتهرت به إيران.
(٢) إيران وعلاقاتها الخارجيَّة في العصر الصفوي ٥٦.

أوربة، مع سكوت الشَّاه عبَّاس عن احتلال الإسبان لمناطق الخليج، ويبقى هدف الشّاه الذي يعيش من أجله محاربة العدو المشترك، وأن تبقى أوربة في سلام وطمأنينة[١].

مع بريطانية

في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر الميلادي (١٥٩٨-١٥٩٩م) وصلت إلى أصفهان جماعة من خمسة وعشرين إنكليزياً برئاسة السِّير أنطوني شيرلي[٢]، وكان برفقته أخوه الأصغر روبرت شيرلي، ومهمَّة هذه الجماعة - البعثة - تحريض الشَّاه عبَّاس على محاربة العثمانيِّين، والاتِّحاد مع الدُّول الأُوربية المسيحية، والحصول منه على امتيازات خاصَّة للتُّجَّار الإنكليز.

ولقد سعد الشَّاه عبَّاس، الذي كان يريد دائماً أن يتَّحد ملوك أوربة ضد السُّلطان العثماني، بقدوم الأخوين شيرلي، واستقبلهم بحفاوة بالغة: «إنِّي سعيد لأنكم وصلتم بالسلامة إلى بلاطي، وأقدامكم فوق أعيننا»[٣]، وأحضر لهم الخمور، وشرب نخب

---

(١) إيران وعلاقاتها الخارجيَّة في العصر الصفوي ٦١.

(٢) وُلِدَ في ويستون بإنكلترة سنة ١٥٦٨م، أنهى دراسته في أُكسفورد، وانخرط في الجيش البريطاني.

(٣) إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي ١٤٣.

سلامة شيرلي، وقال: «إنَّه يفضِّل حذاء أيِّ مسيحي على أكبر رجل عثماني»[١].

واستطاع أنطوني شيرلي الذي منحه الشَّاه لقب أمير، ويخاطبه: ميرزا أنطونيو، أن يعلِّم مجموعة من الجنود الصَّفويِّين فنون الحرب الحديثة، كما كانت آنذاك في الدُّول الأوربيَّة، باستخدام الأسلحة النَّاريَّة.

كتب صامويل بيرشاس، القس الإنكليزي الذي سافر إلى الشَّرق فيما بين: ١٠٢٢-١٠٣٧هـ/ ١٦١٣-١٦٢٦م، في كتاب رحلته يقول: «الدَّولة العثمانيَّة التي كانت باعث رعب وفزع للعالم المسيحي، أصبحت الآن في رعب وخوف على مستقبلها من رجل إنكليزي (السِّير أنطوني شيرلي)، فقد تعلَّم الصَّفويُّون فنون الحرب من شيرلي، وبينما لم يكن لديهم علم عن استخدام المدافع، أصبح لديهم الآن خمس مئة عربة مدفع برونزي، وستُّون ألف بندقيَّة، ولهذا فإنَّ الصفويين كانوا حتى الآن مبعث قلق العثمانيِّين وخوفهم وهم بالسُّيوف، ألقوا الرُّعب والفزع في قلوبهم الآن بقذائف المدافع»[٢].

---

(١) إلى هذا الحدِّ بلغ عداء الشَّاه عبَّاس للعثمانيِّين لأنهم سنَّة.

(٢) إيران وعلاقاتها الخارجيَّة في العصر الصفوي ١٤٥.

وروبرت شيرلي هو الذي اقترح على الشَّاه عبَّاس أن يرسل بعثه إلى بلاط ملوك أوربة، ليتَّحد معهم ضد الدَّولة العثمانية، كما مرَّ.

مع هولندة

وحَّدت الحكومة الهولنديَّة عدداً من الشركات التجارية الهولنديَّة التي كانت تتعامل مع الهند، لإزالة التَّنافس فيما بينها سنة ١٠١٠هـ/ ١٦٠٢م في شركة كبيرة باسم (شركة الهند الشَّرقيَّة الهولنديَّة)، التي أرسلت هوبرت فيسنيك سفيراً إلى بلاط أصفهان، فاستقبله الشَّاه عبَّاس بالتَّرحاب، وعقد بين الطرفين اتفاق في ٢٦ المحرم ١٠٣٣هـ/ ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٦٢٣م، تضمن حرِّية انتقال التُّجار الهولنديِّين في كل أرجاء الدولة الصفوية، مع حرية الشِّراء أو البيع أيِّ بضاعة، مع إعفائهم من الرُّسوم، ويُسمح للهولنديِّين بإقامة كنيسة لهم في أصفهان، وإذا دخل أحد الرَّعايا الهولنديِّين في الإسلام، فإنَّ مندوب الشَّركة يستطيع أن يلقي القبض عليه في أول فرصة، ويستولي على أمواله.. إلخ.

بعد عقد هذا الاتفاق أرسلت الحكومة الهولنديَّة خطاب شكر إلى الشاه عبَّاس، وأرسل الشاه أحد رجال بلاطه واسمه موسى بك سفيراً إلى هولندة للعمل على إقامة علاقات الودِّ والصَّداقة

معها، مع كتاب تمجيد وتقديس: «إلى المجلس العالي، والمحفل المتعالي، حضرة رفيع المرتبة عالي المنزلة، عزّ السّلطنة والشّوكة، عظيم الجلالة والانتساب، حمى المملكة، موطن العدل الرّفيع الجاه والمحبَّة، من له المودَّة شعاراً، حسن الأطوار، سليل السَّلاطين العظام، خلاصة الملوك رفيعي الجاه، أعظم الولاة شوكة في الدِّيانة المسيحية، أعدل الملوك المتمكّنين في بلاد الفرنجة، الملك ذي الجاه، عظيم الأداة، صاحب الأمر في الممالك، فسيحة المسالك.. بعد هذا، فإنَّه نتيجة لدواعي المحبَّة وما يقتضيه ما بيننا وبين حضرات السَّلاطين العظام المسيحيِّين، والملوك رفيعي الجاه الفرنجة من روابط الصَّداقة والوداد، وضوابط المصادقة والاتِّحاد المرعيَّة، وبعد أن فُتِحَت أبواب المجيئ والذَّهاب، والرُّسل والرَّسائل، فقد كنَّا ننتظر أن تراعى هذه الظَّاهرة من ناحيتكم، وتظهر آثار الوحدة والاتِّحاد، ولكن لم يحدث هذا خلال هذه المدَّة حسب التَّقدير الإلهي لم يجئ أحد من قبلكم إلى ديارنا، وفي هذه الأثناء وصل حامل الرِّسالة المتضمِّنة أُسلوب المحبَّة، واطّلعنا على حقيقة حالكم، ممَّا أدَّى إلى سرورنا وانبساطنا وغبطتنا»[١].

وصل موسى بك إلى مدينة لاهاي في جمادى الأُولى ١٠٣٥هـ/

(١) إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي ٢٠٩.

شباط (فبراير) ١٦٢٦م، وقدَّم رسالة الشَّاه عبَّاس وهداياه إلى ملك هولندة، وقدَّم السَّفير الصَّفوي مقترحاته إلى الحكومة الهولندية، بناء على توجيهات الشَّاه عبَّاس، وأهمُّها:

- أن تستدعي الحكومة الهولنديَّة كلَّ سفرائها ومندوبيها من الأراضي العثمانية، وتفتح أبواب تجارتها مع إيران، لأنَّ التُّجَّار الهولنديِّين لا يتمتَّعون في الأراضي العثمانية بالامتيازات والحرية التي يتمتَّعون بها في الأراضي الإيرانية.

- يتعهد السَّفير الإيراني بأن إيران حين تسترد جزر هرمز وقشم وميناء بندر عباس[1] من ملك إسبانية، فإنها سوف تغلق الطريق التجاري البحري في الخليج في وجه السُّفن الإسبانية والبرتغالية لصالح الهولنديين أصدقاء إيران، وحتى يستطيع التُّجار الهولنديون مزاولة التِّجارة في الخليج بحرِّيَّة تامة.

- وطلب مساعدة بحرية هولندية لاسترداد بعض القلاع المحتلة من قبل البرتغاليين، قبالة أن تقبل الحكومة الهولندية الشُّروط نفسها، والقواعد التي قبلتها شركة الهند الشرقية الإنكليزية في مساعدتها للحكومة الإيرانية لاسترداد جزيرة هرمز.

(١) كان اسمه جمبرون.

ولكن الحكومة الهولندية كانت قد حصلت قبل هذا من الشّاه عبَّاس على ما تريد من امتيازات، وكانت ترى أن حربها مع الحكومة الإسبانية في الخليج، ولن تستفيد منها، ولهذا لم تعط للسَّفير الإيراني ردّاً صريحاً أو إيجابياً، وعاد السَّفير الصفوي خائباً في سنة ١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م، وفي عهد الشَّاه عبَّاس الثاني هاجم الهولنديُّون قلعة قشم[١]، وأرسلوا السُّفن إلى جزيرة هرمز وسواحل جنوب فارس ليمنعوا تجَّار شركة الهند الشرقيَّة الإنكليزية من الاتِّجار مع إيران، ولم يصلوا إلى نتيجة بسبب الحرارة الشديدة التي قضت على ملاحيهم، وبقي التنافس التجاري الهولندي - الإنكليزي، حتى قامت سنة ١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م حرب في أوربة بين الإنكليز والهولنديين بسبب قوانين الملاحة دامت سنتين، ثمَّ عادت سنة ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م، ونجحت شركة الهند الشرقية الهولندية في السَّيطرة على تجارة الشَّرق، وقامت لها مراكز في هرمز وبندر عباس، ولار وأصفهان، وفي زمن الشاه حسين بدأ الميل للإنكليز فضُيِّق على الهولنديين، حتى آل الأمر إلى فقدهم السَّيطرة على الخليج والنُّفوذ فيه.

---

(١) قشم (كشم) جزيرة عند مضيق هرمز، مدخل الخليج العربي.

مع ألمانية

فكَّر الشَّاه إسماعيل الأول بتحالف مع الألمان، إذ يجب في شهر نيسان (أبريل) ١٥٢٢م أن نهجم من الجانبين على عدوِّنا المشترك، وهو السُّلطان العثماني سليمان القانوني، وعلينا أن نحارب من شهر نيسان (أبريل)، حتَّى يتم لنا النصر، ولم يبقَ أمامنا من عمل سوى أن نشرع في الحرب ضد الأتراك العثمانيين، بناء على الرَّغبة المشتركة لنا، مع قيام اتِّحاد الدولتين ضد السُّلطان العثماني(١).

وتبيَّن أن ألمانية اكتفت وسعت بإثارة الصَّفويِّين ضد العثمانين، وبعد سنوات أرسل رودلف الثاني إمبراطور ألمانية سفارة إلى البلاط الصَّفوي في أصفهان، لتقف على حقيقة أهداف الشاه عباس الأول، وتحقَّق اتحاد الدولتين ضد السُّلطان العثماني يشارك فيه القيصر الروسي، ورفض القيصر محاربة العثمانيين لأنَّ التَّتار والأوزبك والمغول سكان شرق خراسان وتركستان وما وراء النَّهر، ومغول الهند آنذاك - وكانوا جميعاً من أهل السُّنَّة - سوف يهاجموننا بسبب الوحدة المذهبية بينهم وبين العثمانيِّين(٢).

---

(١) إيران وعلاقاتها الخارجيَّة في العصر الصَّفوي ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٥.

(٢) إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي ٢٤٢.

التَّشيُّع الحقُّ
والتشيُّع السياسي

ميَّز المرحوم الدكتور علي شريعتي[1] بين أتباع ومحبِّي آل البيت عليهم السَّلام، وبين التَّشيُّع الصَّفوي، بين التَّشيُّع الحقِّ، وبين التَّشيع السياسي، وشنَّ على الصفويين هجوماً قاسياً، إذ يسجِّل الدكتور شريعتي على الدولة الصَّفويَّة ملاحظات، أهمُّها:

- محاربتها للدَّولة العثمانية التي وقفت في مواجهة الغرب

---

(١) ولد علي بن محمد تقي شريعتي في (مزينان) وهي قرية من قرى سنزوار في منطقة خراسان، تقع على حافَّة الصَّحراء الكبرى المعروفة باسم (دشت كوير) في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٣م، أسَّس أبوه مع عدد من رجال الدين (مركز الحقائق الإسلامية) لتنقية أصول التشيع مما علق بها عبر القرون من الدَّخيل والخرافة، درس علي شريعتي الآداب وأرسل بعثة إلى فرنسة ١٩٥٩م، عُيِّن في منتصف السِّتينات من القرن العشرين مدرساً بجامعة مشهد، وأخذ يلقي محاضراته ذات الهدف التَّنويري الدِّيني، سُجِن مرَّات، وسمحت له السُّلطة الشَّاهنشاهيَّة بالرحيل عن إيران في أيار (مايو) ١٩٧٧، فسافر إلى لندن، وبعد شهر من إقامته في لندن عُثِرَ عليه ميتاً، (التَّشيُّع العلوي والتَّشيُّع الصفوي) مقدمة د. إبراهيم دسوقي شتا.

المسيحي، العدو الإيديولوجي للإسلام، وكانت حرب الدَّولة الصَّفويَّة مع الدولة العثمانية حرب استنزاف للقوّة الإسلامية، وقد أفضت إلى هشاشة المقاومة، إلى درجة طمع الغرب في تخطِّي الحدود الشماليَّة، ومن ثم استولى على الرُّقعة الإسلامية بشكل تدريجي، وكان ينبغي للدولة الصَّفويَّة أن تقف إلى جانب الدولة العثمانية، لصدِّ العدوان الأوربي الصَّليبي على الدُّول الإسلاميَّة.

- إقامة الدَّولة الصَّفوية اتفاقيات اقتصادية وسياسية وعسكرية مع أوربة، التي هي في حرب مع المسلمين، فشدَّدت تلك الاتفاقيات الخناق على الدَّولة الإسلامية العثمانية، بينما الموقف الشرعي يقتضي مقاطعة الدُّول الأوربية لأنها في حرب مع المسلمين.

- حينما لجأت الدولة الصفوية إلى التَّشيع في محاربة الدولة العثمانية المرتكزة - فيما رأى الصفويُّون - إلى التَّسنُّن الأموي، أعاد الصُّفويُّون بمساعدة رجال الدين صياغة التَّشيُّع، وبناء منظومة من الأفكار المرتكزة إلى الخرافة والميثيولوجية والتَّضليل والاستغفال (والاستحمار)، وتغيَّر التشيُّع من مذهب مناضل منافح عن قيم الإسلام عبر التاريخ، إلى تشيُّع يدعم الاستبداد السياسي، والتخلف الفكري، ويتمسَّك بتقاليد وعادات خرافية، ويتبنى خطاباً دينياً مضلِّلاً، وصار في ظلِّ الدولة الصفوية يستبيح قتل الإنسان السُّني، ولم يستيقظ إلا بعد أن ترك

نقطة سوداء في تاريخ التشيُّع النَّاصع، وبعد أن شطر التشيُّع إلى علوي وصفوي.

إنَّ سياسية الدَّولة الصَّفوية تفرض على رجل الدِّين بالمنطق القرآني أن يشكِّل تحدِّياً صارخاً للاستبداد والتَّعسُّف السياسيَّين، غير أن بعض رجال الدين بدلاً من ذلك وقف إلى جانب السُّلطان، والسُّلطان يستمد شرعيَّته من الفقيه، وأحدهما يشرعن ممارسة الآخر، ويدعم موقفه ومكانته في المجتمع.

ذكر المجلسي[1] في مقدِّمة كتاب زاد المعاد نصّاً يخاطب السُّلطان الصَّفوي:

«..صاحب الحضرة العليا، سيد سلاطين الزَّمان، ورئيس خواقين العصر، شيرازة أوراق الملَّة والدِّين، وصفوة أحفاد سيد المرسلين، الماء والخضراء للبستان المصطفوي، وعين وسراج البيت المرتضوي، السُّلطان الذي خدمه كثير جم، والخاقان الذي الملائكة له حشم، سليل الشَّجاعة، ومن سيفه البتَّار نهر جارف لرؤوس الكفَّار نحو دار البوار، حسامه الحارق كالنَّار يهوي على بيدر المعاندين والمخالفين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ

---

(١) محمد باقر المجلسي ١٠٣٧-١١١٠هـ/١٦٢٧-١٧٠٠م، شيخ الإسلام في أصفهان زمن الشَّاه حسين الأول، اشتهر بكتابة (بحار الأنوار).

عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ٥٥/٣٥][1]، متّى ترتفع أيدي الدَّاعين له بمزيد الرِّفعة في بلاطه العالي البنيان، وتلهج ألسنة أرباب التَّصوُّف بزمزمة الدُّعاء له بخلود دولته، تعينها على ذلك طيور العندليب الشَّامخة على أغصان سدرة المنتهى، والكلٌّ له داع بأن يزلزل الله كل سيف يُشْهَر ضده في يد صاحبه، ويجعل كلَّ راية نفاق مرفوعة بوجهه كفناً لرافعه وحامله.. يا من جبين غضبه يفك العقد التي لا تحل، وراحة يده الكريمة سحاب مطر على مزارع الآيسين، مؤسِّس قواعد الملَّة والدِّين، مروّج شريعة الآباء الطاهرين، ومن حياض بلاطه تفيض من كثرة تقبيل شفاه سلاطين الزمان، وخواقين العصر، ومن صرحه الممرَّد مطرَّز بنداء (قد مسَّنا الضُّرُّ أيُّها العزيز)، أعني السُّلطان الأعظم والخاقان الأعدل الأكرم، ملجأ الأكاسرة، وملاذ القياصرة، والخاقان بن الخاقان، الشَّاه سلطان حسين الموسوي الحسيني بهادرخان، لازالت رايات دولته مرفوعة، وهامات أعدائه مقموعة..إلخ.

ولما كان الدَّجل السِّياسي يفرض على السُّلطان الصفوي ممارسات تمويهيَّة، كالسَّير مشياً على الأقدام لزيارة الإمام

(١) في الأصل: يرسل عليهم.. خطأ صُوِّب.

الرِّضا[١]، والأماكن المقدَّسة الأخرى عند الشيعة مثلاً، ويشارك في مراسم عزاء الإمام الحسين، ويدعم الخطاب الطَّائفي من أجل تأكيد ولائه المذهبي، ارتفع رجل الدِّين في مقابل ذلك بالسُّلطان إلى درجة الآلهة، ويكفي للتَّأكُّد من صحَّة هذا الكلام أن تراجع مقدِّمات الكتب المؤلَّفة في العصر الصفوي، لتقف على مقام السُّلطان في نظر الفقيه، كما قدَّمه المجلسي للشَّاه حسين الأوَّل، وهذه المواقف وغيرها كما هو الحال بالنِّسبة إلى رجل الدِّين الذي وقف إلى جانب الدَّولتَيْن القاجاريَّة والبهلويَّة دعت الدكتور علي شريعتي رحمه الله تعالى وغيره من المثقفين إلى نقد تلك الممارسات وتمزيق جدار الصَّمت المطبق تحت ذرائع شتّى، بل الغريب ثمَّة من لم يدرك حتَّى هذه اللَّحظة حجم الخسائر التي تسببتها تلك المواقف للإسلام، بل وهناك من يمجِّد بثقة رجال الدِّين في العصر الصَّفوي، وآخر يحتج بمواقفهم للتَّنظير إلى مفاهيم ولاية الفقيه، ويعدُّ ثالث المرحلة الصَّفويَّة ربيع الشِّيعة في العالم[٢].

وتجدر الإشارة أن بعض علماء الفترة الصفوية لم يستجيبوا

---

(١) في مدينة مشهد، عاصمة خراسان حالياً، جانب طوس القديمة.

(٢) التَّوحيد رؤية كونيَّة، د. علي شريعتي ١٥.

للإرادة السلطانية، وعبروا عن رفضهم بالصَّمت والعزلة السِّياسيَّة، أو إشغال أوقاتهم بالمناشط العلميَّة، لذا حينما ينتقد الدكتور علي شريعتي رجل الدِّين، فهو لا يقصد إلاَّ رجل الدِّين الصفوي، ومن يمثِّل امتداده عبر المراحل اللاحقة، الذي قال الأئمة اثنا عشر اسماً (ملاكاً) يمكن عبادتهم، فهم مخلوقات غيبيَّة، بل آلهة صغيرة تتحكَّم بالدُّنيا، وبمشيئة النَّاس إلى جانب الإله الأكبر في السَّماء، إن المفهوم الصفوي التَّشارك مع الله في إدارة الكون والعالم[١].

تشيُّع جهل وبدع وتفرقة ومظاهر ومديح وجمود وتعطيل لجميع المسؤوليَّات، والبكاء على الحسين، ففي الحديث حسب (بحار الأنوار) للمجلسي ٤٤/ ٢٩٤: من بكى على الحسين أو أبكى أو تباكى فله الجنَّة، ومن هنا فليس للعمل نصيب، وغفران الذُّنوب بعدد الرِّمال والحصى، أو ذرَّات البحار والمحيطات.. يرتهن دخول الجنَّة إلى البكاء على الحسين.

ناهيك عن حديث قدسي مرويٌّ عن الله، وقد انتشر: «محبُّ علي في الجنَّة ولو عصاني، ومبغض علي في النَّار ولو أطاعني».

دجل سياسي يفرض على السُّلطان الصَّفوي ممارسات

(١) هذا رأي الدكتور علي شريعتي في معرض مقارنته بين التَّشيُّع الحقّ والتَّشيُّع الصَّفوي.

تمويهيَّة، كالسِّير مشياً على الأقدام لزيارة الإمام الرِّضا والأماكن المقدسة الأُخرى عند الشِّيعة مثلاً، ويشارك في مراسم عزاء الإمام الحسين، ويدعم الخطاب الطَّائفي من أجل تأكيد ولائه المذهبي.

وبينما كان العثمانيُّون منهمكين في أقصى الغرب في دحر القوات الغربيَّة، وتحقيق الانتصارات المتوالية، إذ بقوَّة جديدة تظهر على حدودهم الشَّرقية، وتباغتهم من الخلف هي الدَّولة الصَّفويَّة[1].

«حين يرتدي الزُّور لباس التَّقوى تقع أكبر كوارث التاريخ»، وقد وقعت.

لقد قتل الشَّاه إسماعيل الصفوي مئات الأُلوف من المسلمين دون ذنب أو جريرة، إلاَّ عدم دخولهم في مذهبه، بعضهم مات حرقاً رجالاً ونساء وأطفالاً وكهولاً مع تدمير بيوتهم وممتلكاتهم كما فعل في أردبيل، فمن رفض مذهبه وأبى شتم الصَّحابة ألقاه في النَّار حيّاً.

عرش من الجماجم، على أنهار من الدِّماء، في سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م استولى على شيروان - شرق باكو وما حولها - وأسر

(١) التَّشيُّع العلوي والتشيُّع الصفوي ٧٢.

ملكها شيروان شاه، فوضعه في قدر كبير،ثمَّ أوقد النَّار تحت القِدْر وطهاه، ثم أطعمه للكلاب.

ولا مجال للشَّرح أكثر، فكتاب (إيران وعلاقاتها الخارجيَّة في العصر الصفوي) ينطق بالأسى والألم، ففعال الشَّاه إسماعيل الصَّفوي أدَّت إلى فرقة المسلمين، وإحداث صدع في صفوفهم أدى إلى إضعافهم، وفناء قوَّتهم، فوقعوا فريسة سهلة للاستعمار الأُوربي الصَّليبي، والرُّوسي القيصري، مما لازلنا نعاني آثاره حتَّى اليوم.

❋ ❋ ❋

العثمانيُّون

من فتح القسطنطينيَّة إلى تشالديران

أثبت محمد الفاتح أنَّه أحد أكابر حكام العالم بما حقَّقه، فمع فتح القسطنطينيَّة التي تعدُّ من لآلئ العالم، حقَّق حركة إعمارية كبيرة، فقد أنهى سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م بناء (كليَّة الفاتح)، التي هي جامعة كبيرة، وحارب ستة عشر عاماً جيوشاً صليبيَّة في البلقان، كان منها جيش تجمع من عدد كبير من الدُّول الأُوربية سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م، نتيجة بذل البابا قصارى جهده، وإعلانه أنَّ من يشترك في هذه الحروب تغفر ذنوبه لستَّة أشهر[1].

وهزم أحد خلفاء تيمورلنك، المعروف باسم أُوزون حسن،

---

(١) تاريخ الدَّولة العثمانيَّة العليَّة (التُّحفة الحليميَّة)، إبراهيم حليم، ٧٩ وما بعدها. وتاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة، محمد فريد المحامي، وكتاب البوم العثمانيِّين، عبد القادر ده ده أُغلو، ترجمة محمد جان، النَّاشر: الدار العثماني للنَّشر، دون تاريخ ٤٥ وما بعدها.

حاكم أذربيجان وكردستان، الذي تعدَّى على الحدود الشَّرقيَّة للدَّولة العثمانيَّة، ففرَّ هارباً أمام جيش محمد الفاتح[١].

قاد محمد الفاتح خمساً وعشرين حرباً بنفسه في ثلاثين سنة، فبلغت مساحة دولته بعدها ٢,٢١٤,٠٠٠كم٢، وقد كانت قبل حكمه ٩٠٠,٠٠٠كم٢ فقط.

نجى السُّلطان محمد الفاتح من أربع عشرة مؤامرة حيكت من قبل أهل البندقيَّة - فينيسية - إلاَّ أنَّه لم ينجُ من الأخيرة، فقد قتله البنادقة بإطعامه السُّم بواسطة طبيب يهوديٍّ الأصل يدعى Maesto Jakopo، واستناداً إلى قول المؤرِّخ Babinger إنَّ هذا الرَّجل كان من أطبَّاء القصر، ويدعى يعقوب باشا.

مات السُّلطان محمد الفاتح يوم الخميس ٤ ربيع الأول ٨٨٦هـ، فخلفه ابنه بيازيد الثاني، الذي تلقّى تدريساً ممتازاً، وسُمِّي بالوليِّ لكمال تقواه، رعى الفقراء، وأحبَّ الإعمار، واتقن العربيَّة والفارسيَّة، ودرس الرِّياضيات والفلسفة إلى جانب العلوم الإسلامية.

كان بيازيد الثاني ميَّالاً للسِّلم أكثر منه إلى الحرب، ناضل ضد

---

(١) كان الجيش الأوربي بقيادة هونياد ملك المجر يهدف إلى طرد العثمانيِّين من أقاليم أوربة، وكان قوامه ٣٠٠ ألف مقاتل، فترك السُّلطان محمد الفاتح بلغراد، وانتقم من ملك المجر.

أخيه (جم) أربعة عشر عاماً، وفشل جم وهرب إلى مصر سنة ٨٨٨هـ، فأكرمه السُّلطان قايتباي المملوكي، ثمَّ حاول العودة إلى الأناضول سنة ٨٨٩هـ، ولكنه فشل ثانية في حربه ضد بيازيد الثاني، وذهب إلى جزيرة رودس، ومنها إلى فرنسة، ثم إلى رومة حيث قُتِل مسموماً.

وحارب بيازيد الثَّاني ضد المماليك في سنة ١٤٨٤-١٤٨٥م، وحاصر بلغراد، وبدأ حرباً بحريَّة ضد إسبانية، وفي زمانه وصل إلى القسطنطينيَّة أول سفير روسي ١٤٩٢م، ومعه جملة هدايا للسُّلطان.

تنازل بيازيد الثاني لابنه سليم، الذي كان أقوى أولاده، وكانت وفاته في ٢٦ أيار (مايو) ١٥١٢م، وحين إعلان وفاته صُلِّي عليه حتى في مصر التي كان أكثر حروبه معها، كانت مساحة الدَّولة عند ارتقائه العرش ٢,٢١٤,٠٠٠كم٢، وصارت حين وفاته ٢,٣٧٥,٠٠٠كم٢.

كان سليم بن بيازيد الثاني (الياووز: القاطع) جسوراً شغوفاً بالحرب، وكان مشهوراً في شبابه بالشَّجاعة، وحبِّ الحرب، ولذا كان محبوباً لدى الجيش، مع أنَّه كان في غاية الرِّقَّة، يتناول في كلِّ وجبة نوعاً واحداً من الطعام، ويستعمل الأطباق الخشبيَّة، أنهى دراسة علميَّة جيدة، وكان شغوفاً بالأدب، وكتب أشعاراً كثيرة.

لم يبايعه أخوه أحمد، زاعماً أنه هو الأحق لكونه الأكبر سنّاً، فجمع حوله أغلب أُمراء الأناضول، ولكن سليماً تمكَّن من أخيه أحمد وجيشه وقتله، وكان لأحمد ولدان: مراد وعلاء الدِّين، هرب الأول إلى العجم، والثاني إلى مصر، ولما عاد السُّلطان سليم إلى أدرنة، جاء سفراء جميع الدُّول سنة ٩١٨هـ، عدا سفير شاه العجم للتَّبريك وتجديد المعاهدات لدولهم.

سار سليم الأول إلى تشالديران مسافة ٢٥٠٠كم، ومع ذلك أحرز نصراً على الشَّاه إسماعيل الصَّفوي خلال اثنتي عشرة ساعة فقط.



الياووز سليم الأول

تشَالدِيرانُ

٢رجب-٩٢٠هـ/٢٣ آب (أُغسطس) ١٥١٤م

أعلن الشاه إسماعيل الصفوي عن رغبته بجعل الأناضول جزءاً من الإمبراطوريَّة الإيرانية، ولذلك تعدى على جهات خربوت ومرعش[1]، واستمال التُّركمان السَّاكنين في المنطقة، ورتَّب لنفسه منهم جيشاً سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م، فأسرع السُّلطان بيازيد الثاني بنقل باقي التُّركمان إلى المورة.

وبعد أن شعر العثمانيون بالخطر في حدود بلادهم الشَّرقيَّة، حاولوا أن ينهوا حربهم مع البندقيَّة، ولكن الشّاه ردَّ على ذلك فيما بعد بطلب تحالف مع البندقيَّة مقابل تزويده بالمدافع، وعلى الرَّغم من استفزازات الشَّاه إسماعيل، حافظ بيازيد الثاني على موقف استرضائي، ولكن في عام ٩١١هـ/١٥١١م في سنوات حكم بيازيد الثاني الأخيرة، حين انشغل الأُمراء العثمانيُّون من

(١) خربوت ومرعش من مدن شرق الأناضول.

جديد بالعرش، أشعل القزلباش[١] تمرُّداً جديداً في مرتفعات الأناضول الغربي بقيادة أحد دعاة الشَّاه إسماعيل، وقد قامت قوات التَّمرُّد بإحراق وتدمير كلّ ما وجدته في طريقها إلى بورصة، وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ السّباهيّة[٢] الذين أُخذت منهم التّيمارات في السَّابق، اضطلعوا بقيادة هذا التَّمرُّد.

كان من الواضح أن السُّلطان العجوز والمريض بيازيد الثَّاني، لم يعد قادراً على السَّيطرة على الوضع، ولذلك فقد نجح الأمير سليم، الذي كان يدعو من البداية إلى موقف صارم حازم ضد الشَّاه إسماعيل، فقد كسب تأييد الإنكشاريَّة، وأرغم والده على التَّنازل عن العرش في ٢٤ نيسان (أبريل) ١٥١٢م.

تميَّز عهد السُّلطان بيازيد الثاني بتطوُّر اقتصادي كبير في ظروف مستقرَّة وآمنة، حيث استمرَّت أَضنة وبورصة في تطوُّرهما السَّريع، وأصبحت كلُّ واحدة بفضل الجوامع والخانات والمباني الأُخرى تبدو بمظهر المدن الإمبراطوريَّة، ولم يكن بيازيد الثاني فاتحاً كبيراً كأبيه، إلا أنَّه تمكَّن خلال عهده من إقرار الوضع في الأراضي التي فتحها أبوه.

(١) فيزيل باشا: أحمر الرّأس، يلبس عمامة حمراء، (معجم الدولة العثمانية ١٦٢)، وقد مرَّ تعريفها مفصلاً.

(٢) سباهي: جندي بالفارسيَّة، وتطلق على الفارس الذي يقطع أرضاً مقابل خدمته العسكريّة، (معجم الدولة العثمانية ١٠٥)، والتيمار: أرض زراعية تمنح لمن يتعهد بتقديم عدد من الفرسان للدولة عند قيام الحرب.

وخلال هذا العهد توافرت في الواقع الشُّروط اللازمة لكي يتابع سليم الأوَّل وسليمان القانوني الفتوحات الكبرى، فقد تمكَّن بيازيد الثاني من تحديث القوات البرِّيَّة والبحريَّة، وبفضل الأسلحة النَّاريَّة تمكَّن سليم الأوَّل من إحراز انتصاراته الحاسمة ضد الشاه إسماعيل الصَّفوي ومماليك مصر.

الأسباب المباشرة لمعركة تشالديران

بعد تنحِّي السلطان بيازيد الثاني، وتولِّي ابنه السلطان سليم الأول مقاليد الحكم في إسطنبول، أعلن أخوه أحمد والي أماسية العصيان، وقرأ الخطبة لنفسه، ولكن الوزراء والقوَّاد استدعوه بالحيلة والخديعة إلى إسطنبول، حيث قُتِل، وأرسلوا جيشاً لإحضار ابنه مراد، الذي طلب المساعدة من الصَّفويِّين، ولم يجد مراد أمامه إلاَّ التَّوجُّه إلى الشَّاه إسماعيل الصفوي، الذي كان آنذاك في أصفهان، ولما علم بمقدمه، أمر باستقباله استقبالاً حافلاً خارج المدينة، وحين وصل إلى باب حديقة قصر (نقش جهان) استقبله الشَّاه بنفسه، وأجلسه بجواره، وقال له: «اطمئن، فسأَنتقم لأبيك من عمِّك السُّلطان سليم، وسأقضي عليه، وأجعل كلَّ بلاد الرُّوم - أي أراضي الدَّولة العثمانيَّة -

لك»[١]، فشكره الأمير، وقال له: إنه التجأ إليه لحسن اعتقاده في الصَّفويِّين، وليشرِّف رأسه بلبس تاج الأئمة الإثني عشر[٢]، فخلع الشَّاه إسماعيل التَّاج من على رأسه، وألبسه للأمير، وقال له: «أمامنا نحو شهر ونصف إلى أن يحلَّ فصل الرَّبيع، وآنذاك سنتوجَّه إلى تبريز لجمع الجيش، وإذا حضر السُّلطان سليم وفَّر علينا الجهد، وإلاَّ فستكون معركتنا على شاطئ أسكودار»[٣].

بعد هذا، خرج الشَّاه إسماعيل للصَّيد، واصطحب معه الأمير مراد، فلمَّا رجعوا لمخيمهم ظهرت أعراض المرض على الأمير مراد، وتوفِّي بعد ستَّة أيام.

وحينما علم السُّلطان سليم الأول أن ابن أخيه التجأ للشَّاه إسماعيل الصفوي لاستعدائه عليه، أخذ في الإعداد للحرب، وأرسل مبعوثاً إلى الشاه إسماعيل يحمل رسالة، جاء فيها:

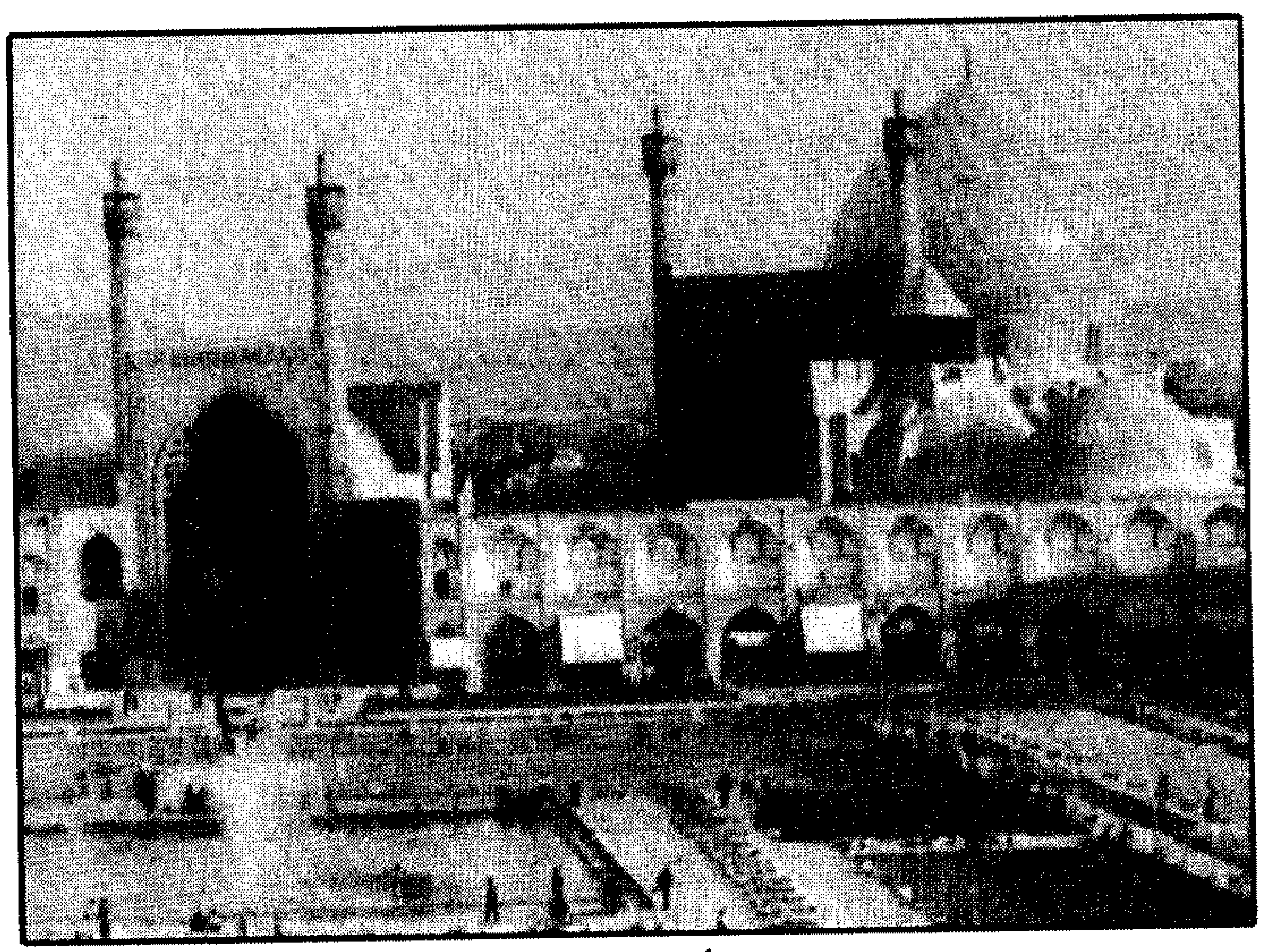
«ليكن معلوماً للشَّاه إسماعيل أنَّك أرسلت عدَّة مرات إلى أبينا المخرِّف فخدعته وأخفته، فمرَّة أرسلت له رأس شاهي بك،

---

(١) كلام سياسة، فلو فتحها لضمَّها إلى ملكه الصفوي، ولو صدقَّنا مقولته، لجعله تابعاً له يأتمر بأمره.

(٢) كلام سياسة، ومصلحة أيضاً، يريد أن يصل إلى العرش، وينتقم لأبيه، ولو على حساب عقيدته ودينه.

(٣) البرُّ الآسيوي قُبالة إسطنبول تماماً، هي اليوم من إسطنبول.



أصفهان



قصر في أصفهان

ومرَّة قطعة من علم جنكيزخان، ولهذا السَّبب خلعناه، وقد صمَّمت على الانتقام للماضي، وكنت أنوي التَّوجُّه إليك في العام الماضي، ولكن ثارت مشكلة أخي الذي التجأ ابنه إليك، وعلى أيَّة حال عليك أن تقيِّده وتجعل الأغلال في عنقه وترسله إلينا، وعليك أيضاً أن تكفَّ يدك عن ديار بكر، وتخرج أعوانك منها حتّى ينتهي ما بيننا وبينك من عداوة وحرب، وتحلُّ محلها المودّة والصداقة، وإذا فعلت غير هذا، فعليك الاستعداد للحرب».

حينما وصل الرَّسول إلى أصفهان، وقدَّم الرِّسالة للشَّاه إسماعيل، كتب له ردّاً جاء فيه:

«قرأت رسالتك الرَّكيكة التي ذكرت فيها عدم تعقُّل أبيك وسوء تدبيره، وإرسالنا رأس شاهي بك وقطعة من علم جنكيز إليه، ولقد كان أبوك بعيد النَّظر، يعلم أنَّ كلَّ من يخالفنا نسوِّيه بالأرض، وما دامت أهواء الغرور قد سيطرت على عقلك، فإن شاء الله سنقطع رأسك التَّعس هذا بقوَّة ذراع فاتح خيبر - أمير المؤمنين عليه السَّلام - ونرسله إلى ملك البرتغال، وقد ذكرت أنَّ ولاية ديار بكر التي ورثناها يجب أن أُسلِّمها لأتباعك، وهذه الولاية لم تكن لأبيك، إذ إنها كانت من أملاك علاء الدَّولة ذي القدر، أخذها من أولاد حسن آق قويونلو، واستولى عليها رجالي بحدِّ السَّيف من علاء الدَّولة، الذي كان أجدادك وآباؤك

يدفعون له الخراج والجزية، وليس لك أن تدَّعي المطالبة بولاية حسن آق قويونلو.

أمَّا فيما يتعلق بالسُّلطان مراد فقد التجأ إلى بلاط كان وما زال ملجأً لملوك العالم، ونزل ضيفاً علينا، ولا يمكن لمضيف أن يُخْرِج ضيفه من بيته، ولمَّا كنت تريد المجيء إلينا فقد نلتقي والسَّلام»[١].

حينما نزل السُّلطان سليم الأول خارج مدينة أرزنجان[٢]، أرسل رسولاً آخر للشَّاه إسماعيل، يقول له: لقد سبق أن أرسلنا لك نخبرك بقدومنا لحربك، ونحن الآن نعسكر في أرزنجان، فإذا كنت تفكِّر في شيء فافعله، وإن كنت تفكِّر في اللَّهو والرَّاحة فابعث إلينا ابن أخي معزَّزاً، فإن لم يقبل بالحسنى فقيِّده بالسَّلاسل والأغلال وأرسله إلينا، وعليك أيضاً أن تكفَّ يدك عن البلاد التي ورثناها حتَّى تستمر بيننا الصداقة القديمة على حالها، وإلا فموعدنا للحرب سيكون في تبريز، فاختر ما تشاء، وأخبر رسولنا به وأعده إلينا، فنحن في انتظار ردِّك.

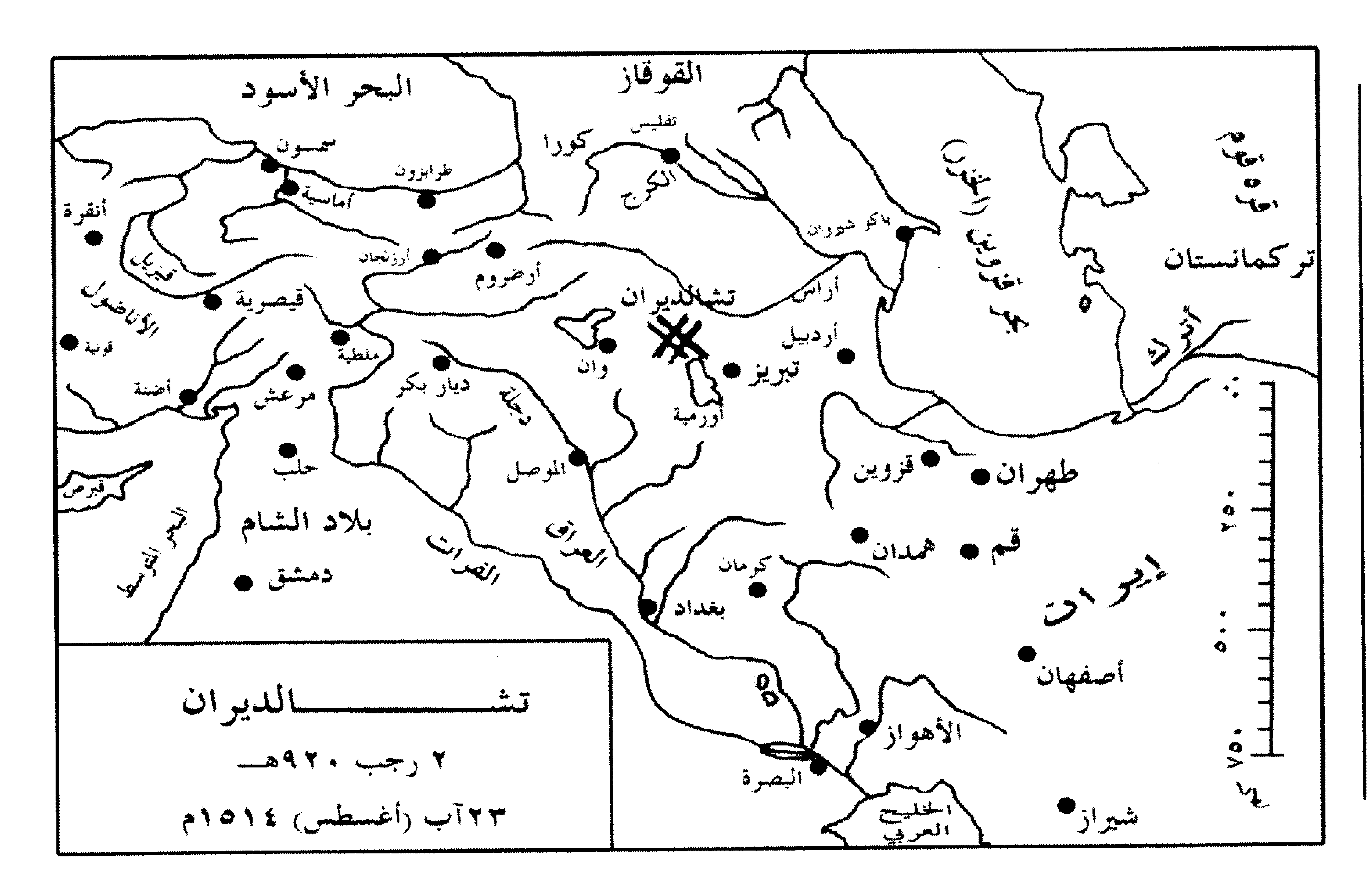
---

(١) التوثيق هذه الرَّسائل المتبادلة - ولحوادث هذا الفصل: تشالديران - انظر: (إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي)، مقدِّمة المترجم الأستاذ محمد فتحي يوسف الرِّيس، والنَّص مقتبس من (عالم أراي صفوي) ٤٧٢ وما بعدها.

(٢) أرزنجان: مدينة عند منابع الفرات الأعلى، غرب أرضروم.

وصل السَّفير إلى همدان وسلَّم الرِّسالة للشاه إسماعيل، وفي الوقت نفسه جاءه نعي الأمير مراد في أثناء نقله من أصفهان إلى همدان، وكذلك جاءه نعي طفل كان لمراد عمره عشر سنوات، سقط من على الحصان وتوفِّي في ساعته، ممَّا أحزن الشَّاه إسماعيل، وجعله يقول: «أيُّ ذريعة أعطاها هذا الزَّمان الغدَّار للسُّلطان سليم؟».

ثم استدعى السَّفير، وقال له: اذهب وأبلغ دعاءنا للقيصر - أي سليم الأول، يلقِّبه بالقيصر تصغيراً وتحقيراً - وقل له: إنَّ الزمن لم يمهل ذلك الأمير، واعتقد أنَّك أرسلت أحد جواسيسك فتنكَّر في صورة صديق للأمير، ثم دسَّ له السُّم، وكأنَّك لم تكتفِ أن تكون يوم القيامة قاتل أبيه، فهل كان يجب أن تحمل وزر ابن أخيك أيضاً، على أيَّة حال، لقد أحسنت بمجيئك، وإن كنت تريد ديار بكر، فلم آخذها من أبيك، لأنَّني أخذتها من علاء الدَّولة ذي القدر بحدِّ السيف، وكان قد استولى عليها من حسن شاه التُّركماني، ولما كان قد خطر لك ادعاء أملاكه، فعلى أيَّة حال، موعدنا أرضروم، وقد أحسنت بأن أبلغتنا بقدومك، ثم قال للسَّفير: «عُدْ، فإنَّك ما تكاد تقابل القيصر - أي سليم الأول - حتى أكون قد لحقت بك».



البحر الأسود
القوقاز
تركمانستان
قره قوم
بحر قزوين (الخزر)
أترك
سمسون
طرابزون
أماسية
أنقرة
قيزيل
قيصرية
الأناضول
قونية
أضنة
مرعش
ملطية
أرزنجان
أرضروم
كورا
تفليس
الكرج
باكو شروان
أراس
تشالديران
أردبيل
تبريز
أورمية
وان
ديار بكر
دجلة
الموصل
حلب
قبرص
البحر المتوسط
بلاد الشام
دمشق
الفرات
العراق
بغداد
كرمان
قزوين
طهران
همدان
قم
إيران
أصفهان
الأهواز
البصرة
الخليج العربي
شيراز
٢٥٠
٥٠٠
٧٥٠ كم
تشالديران
٢ رجب ٩٢٠هـ
٢٣ آب (أغسطس) ١٥١٤م

خرج الشَّاه إسماعيل من همدان متوجِّهاً إلى تبريز، ومعه نحو اثني عشر ألف مقاتل، هم الذين كانوا يلازمونه بصفة دائمة، وحين وصل إلى تبريز أمر فكتبوا إلى كلِّ المدن لاستدعاء الجيش واللِّحاق به، ولكن جاءه الجواسيس وأخبروه أنَّ السُّلطان سليم وصل إلى أرضروم، ونصحه بعد الأُمراء بالانتظار حتَّى يصل بقيَّة الجيش، ولكنه ترك تبريز وتوجَّه إلى سهل تشالديران (جالديران) في أول شهر رجب سنة ٩٢٠هـ/آب (أُغسطس) ١٥١٤م، ونزل بجيشه هناك، وقال: هنا سيكون لقاؤنا مع القيصر - أي سليم الأول - وكان عدد جنوده قد وصل إلى نحو ثمانية عشر ألف مقاتل.

المعركة

تشالديران (جالديران) Chaldiran اسم سهل يقع في الشَّمال الغربي لمدينة تبريز، شرق بحيرة وان.

في صباح يوم الأربعاء الثَّاني من شهر رجب سنة ٩٢٠هـ/ ٢٣ آب (أُغسطس) ١٥١٤م اصطفَّ الجيشان[١]، ويذكر الصَّفويُّون أن الشَّاه إسماعيل كان قد طلب من السُّلطان سليم ألا يستخدم المدفعية في هذه المعركة، لأن الصَّفويِّين لم يكونوا قد أدخلوا

(١) اتفق أن كسفت الشمس يومئذ، فتفاءل العثمانيُّون خيراً، واستدلُّوا من ذلك على أنَّ الله سوف يخزي الصَّفويِّين.

الأسلحة النَّاريَّة في جيشهم حتَّى ذلك الوقت، ويدَّعون أن السُّلطان سليم وعدهم بهذا، مع أنَّ العثمانيِّين كان قتالهم اعتماداً على فرسانهم ومدفعيتهم الحديثة، التي أخفوها في مؤخِّرة الجيش.

ويعدُّ طلب الشَّاه إسماعيل هذا اعترافاً معلناً قبل بدء المعركة، أنَّ تسليح جيش العثمانيِّين أفضل وأقوى، وليس من حقِّ قائد سار إلى القتال بكامل رغبته وتعاليه وتهديده له بقطع رأسه وإرساله إياه إلى ملك البرتغال، أن يشترط على خصمه ألا يستعمل سلاحاً أحضره معه من بُعْد ٢٥٠٠كم، مع مشقَّة النقل في طرقات ووسائل ذاك العصر، وألاَّ يستخدم سلاحاً بعينه، بدعوى أنَّني لا أمتلك مثله، والهدف: كي أُحقِّق نصراً عليك!

وتقول المصادر الصَّفويَّة: وقد وعدهم السُّلطان سليم بهذا[1].

---

(١) «الحربُ خَدْعَةٌ» حديث شريف صحيح، أي الحرب ينقضي أمرها بالمخادعة، وفيها إشارة لطيفة إلى مكر العدو، وفيها تحذير من خداعه أيضاً، وأنَّه لاينبغي التَّهاون به، فقد يلجأ إلى الخداع، وفي الحديث أيضاً إشارة إلى استعمال الرَّأي في الحرب، نصَّت المادة ٢٤ من اتفاقيَّة الحرب البرِّيَّة لسنة ١٩٠٧م على أنه يجوز للدُّول المحاربة أن تلجأ في الحرب إلى الخداع، بشرط ألا تصل إلى درجة الغدر والخيانة، أو الإخلال بواجباتها، (الحرب في القانون الدَّولي العام) ١١٣.

فلمَّا دارت المعركة، ضغط الصَّفويُّون على العثمانيين، وأجبروهم على التَّقهقر في بعض المواقع، ونجح الشَّاه في كسر الجناح الأيسر لجيش العثمانيين المؤلَّف من عساكر الرُّوملي، فطلب الصَّدر الأعظم من السلطان سليم أن يأمر بإطلاق المدفعيَّة، فقال له السُّلطان: لقد أقسمت على عدم إطلاقها، فقال الصدر الأعظم: أنت أقسمت، ولكنَّني لم أُقسم، ثمَّ أمر بإطلاق المدفعيَّة على جيش الصَّفويِّين.

ويقولون: إنَّه في أوَّل دفعة من نيران المدفعيَّة العثمانية، قُتِل عشرون ألف عثماني، وسبعة آلاف قزلباش صفوي، وذلك لاختلاط الجيشين في القتال بالسُّيوف والرِّماح.

وقد قُتِل أغلب قادة القزلباشيَّة في هذه المعركة، ومنهم خان محمد خان استاجلو، زوج أُخت الشَّاه إسماعيل، وسيِّد محمد كمونه الذي كان قد سهل للشَّاه إسماعيل دخول بغداد، وسارو بيره استاجلو، رئيس الحرس الخاص، وغيرهم.

ولهذا تفرَّق جيش القزلباشيَّة، ووقع كثير منهم في الأسر، وظلَّ الشَّاه إسماعيل يعدو في ميدان المعركة بفرسه يحاول جمع شتات جيشه، واستطاع إنقاذ بعضهم من حصار العثمانيِّين، ومنهم قائده وشقيق زوجته (دورمش خان استاجلو) ومعه نحو أربع مئة أو خمس مئة مقاتل، وقال له: عد إلى تبريز لأنَّني

أحاول إنقاذ من أتمكَّن من إنقاذهم، لأنَّ الحضرات، [ويقصد بالحضرات الإمام علي بن أبي طالب، إذ كان يدَّعي أنَّه يحارب معه في معاركه، ممَّا يدفع القزلباشيَّة للاستبسال في القتال، وكانوا يقولون: «حامي أُوزي در» وهي بالتُّركية ومعناها: «جاء الحامي»]، لم يجيئوا لمساعدتنا هذه المرَّة، ومن المؤكد أنَّني لن أستطيع أن أفعل شيئاً.

لقد بدَّدت المدفعية العثمانية شمل الجيش الصَّفوي، فولَّى الصَّفويُّون الأدبار، حتى كاد الشَّاه أن يقع أسيراً في قبضة العثمانيِّين الذين استولوا على خيمته وخزانته.

وكان العثمانيُّون قد أسروا أحد قوَّاد القزلباشيَّة، وهو الأمير ميرزا أفشار، وقد ادّعى أنَّه هو الشَّاه إسماعيل الصفوي، وتختلف الروايات في هذا، فتقول بعضها إنَّ الفرسان العثمانيِّين تعقَّبوا الشَّاه إسماعيل، وكادوا يقتلونه بحرابهم، فصاح فيهم هذا الأمير قائلاً: إنَّني أنا الشَّاه إسماعيل، وأنتم إنَّما تتعقَّبون أحد أتباعي وتظنُّونه الشَّاه، فخلوا الشَّاه إسماعيل وتعقَّبوا علي ميرزا أفشار وأسروه، وبهذه الحيلة أنقذ الشَّاه من الوقوع في أيدي العثمانيِّين، وافتداه بنفسه، وبعد أن حملوه إلى السُّلطان سليم تبيَّن لهم أنَّه أحد قوَّاده، فقتلوه هناك.

وقد سيطر العثمانيُّون على المعركة، واستطاعوا الوصول إلى

معسكر الصَّفويَّة، وحملوا كلَّ ما كان به من سلاح وعتاد ودواب، وحاربت زوجة الشَّاه إسماعيل وهي (تاجلو بيجم استاجلو)، ووضعت قناعاً على وجهها، وأخذت تقاتل كالرِّجال، وقد التقى بها الشَّاه إسماعيل في أثناء محاولاته اليائسة لإنقاذ بعض جنوده المحاصرين، وطلب منها أن تعود إلى تبريز، وحينما عاد إلى تبريز وسأل عنها، لم يستدل عليها أحد، إذ إنَّها كانت قد أُصيبت ببعض الجراح، وضلَّت الطريق في الصحراء، إلى أن عثروا عليها بعد ثلاثة أيام، وقد عنَّفها الشَّاه إسماعيل وهدَّدها بالقتل إن لم تقسم على عدم الاشتراك في القتال بعد ذلك.

وفي رواية: غنم العثمانيُّون خزانة الشَّاه إسماعيل، وأوقعوا في الأسر زوجته تاجلو بيجم - أو تاجلي خانم - وأبى السُّلطان سليم أن يردَّها إلى زوجها طليقة السَّراح، وزوَّجها أحد رجاله نكاية في زوجها الشَّاه[1].

حين يئس الشاه إسماعيل من المعركة، عاد بمفرده متوجِّهاً إلى مدينة (درجزين) في الطَّريق إلى تبريز، وفي أثناء سيره على غير هدى، دخل فرسه في مستنقع موحل، وكان كلَّما حاول الخروج

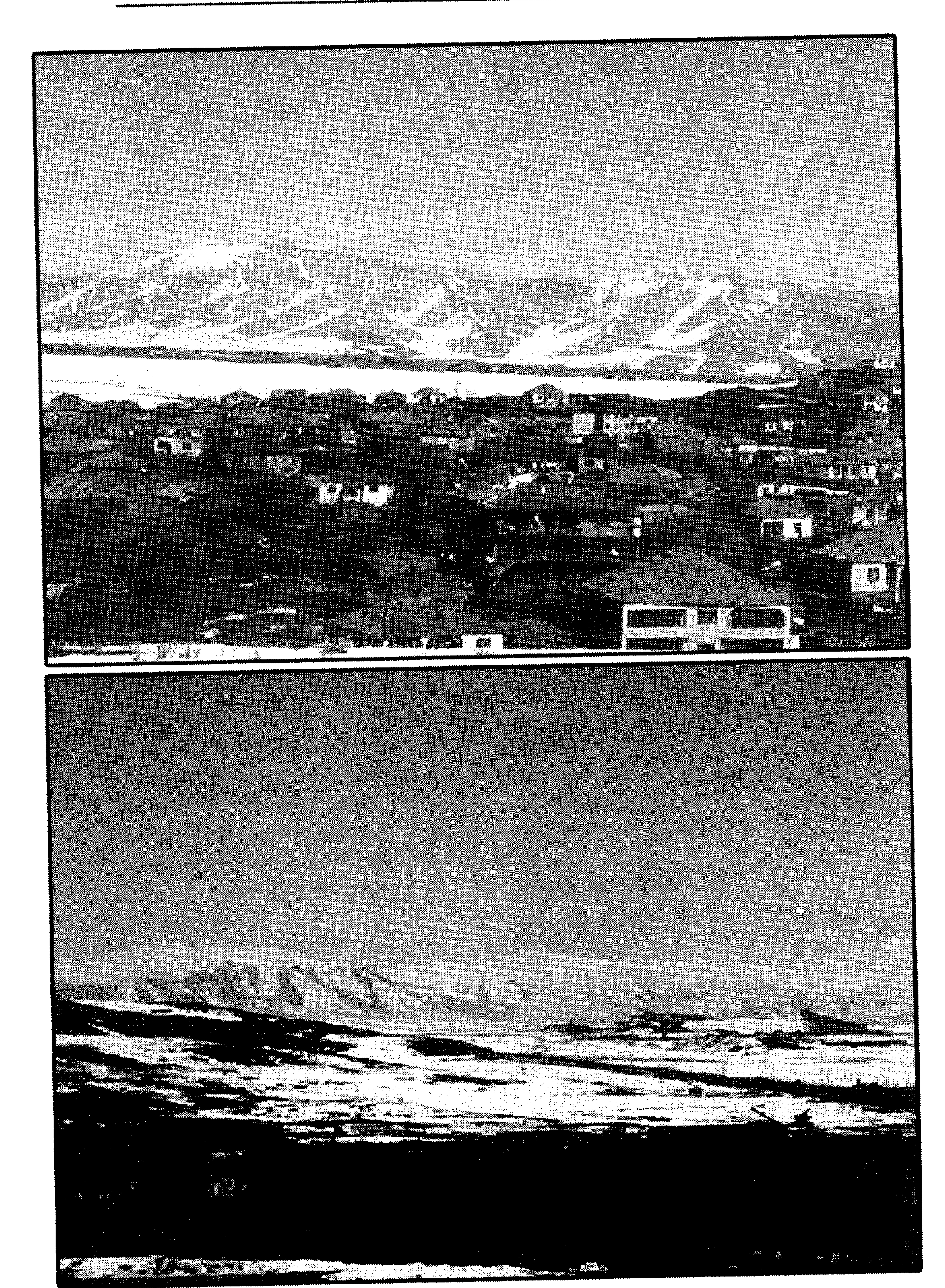
(١) معجم الدولة العثمانية ٢٧٤.

منه ازداد غوصاً فيه، حتَّى كاد يهلك، وقد مرَّ على مقربة منه خليل خان ذو القدر، والي إقليم فارس فارّاً من المعركة، فناداه الشَّاه إسماعيل لينقذه، ولكن خليل خان تغافل عنه، وانطلق في طريقه، وبعد فترة، رأى الشَّاه شخصاً آخر، عرف من ملابسه أنَّه من القزلباشيَّة، فناداه، وحين اقترب تبيَّن أنه سائسه الخاص، فطلب منه أن يُلْقي له حبلاً يستخدمه رعاة البقر للإمساك بالخيول أو الأبقار، وأحياناً الأفراد.

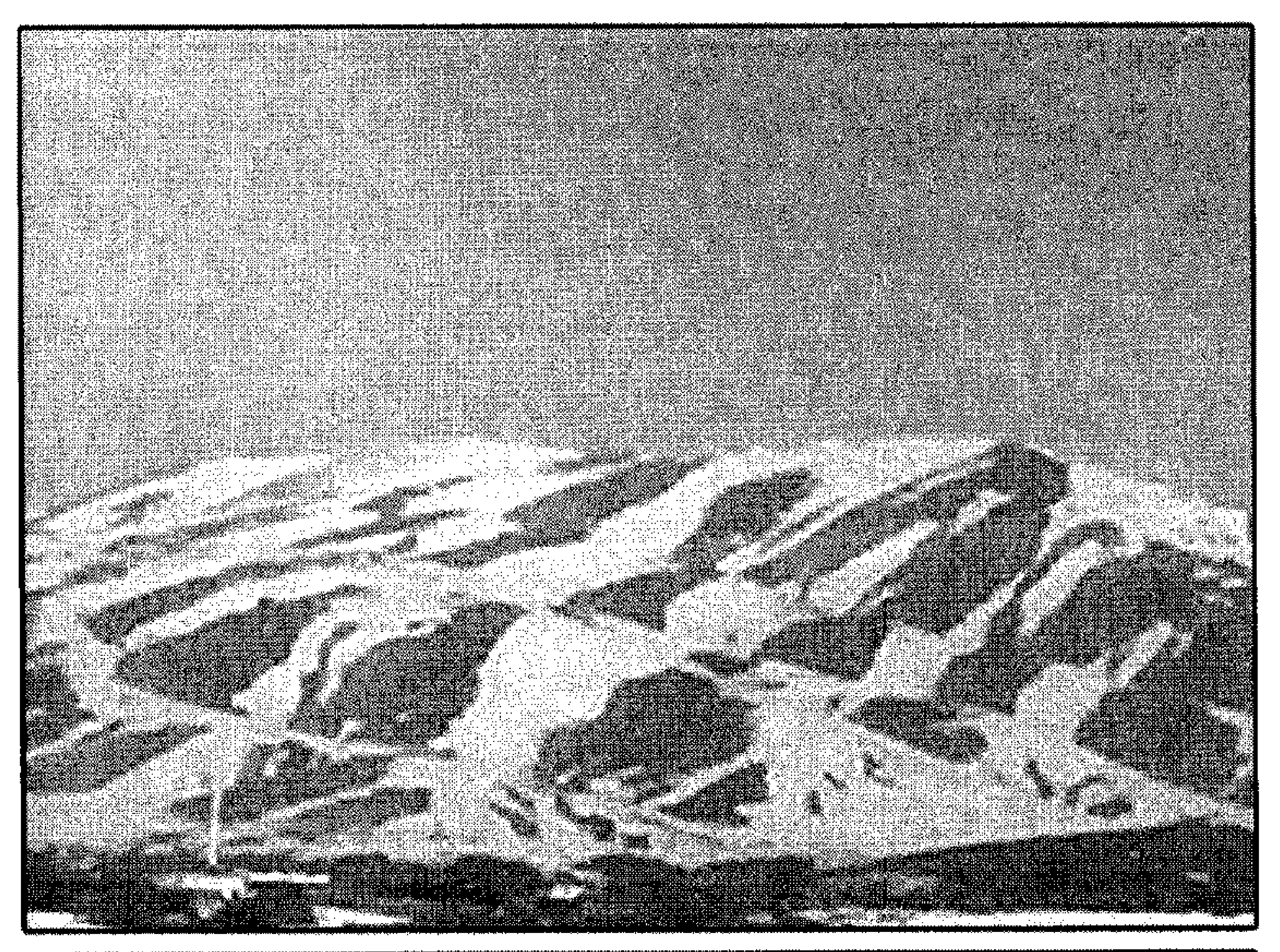
تناول الشَّاه الحبل - واسمه في لغتهم: بوهقة - وربطه في وسطه، ثمَّ سحبه السَّائس بحصانه، فلمَّا خرج الشَّاه من الوحل، ركب حصان سائسه وانطلق، واستطاع السَّائس أن ينقذ فرس الشَّاه من الوحل، ثم لحق بالشَّاه في (درجزين)، وقد كافأه الشَّاه على هذا بأن منحه ولاية (داراب جرد)[1]، أمَّا خليل خان فقد أرسل إليه الشَّاه أمراً بأن يقتل نفسه، ففعل.

---

(١) دارابْجِرْد: ولاية بفارس، معجم البلدان ٢/ ٤١٩.

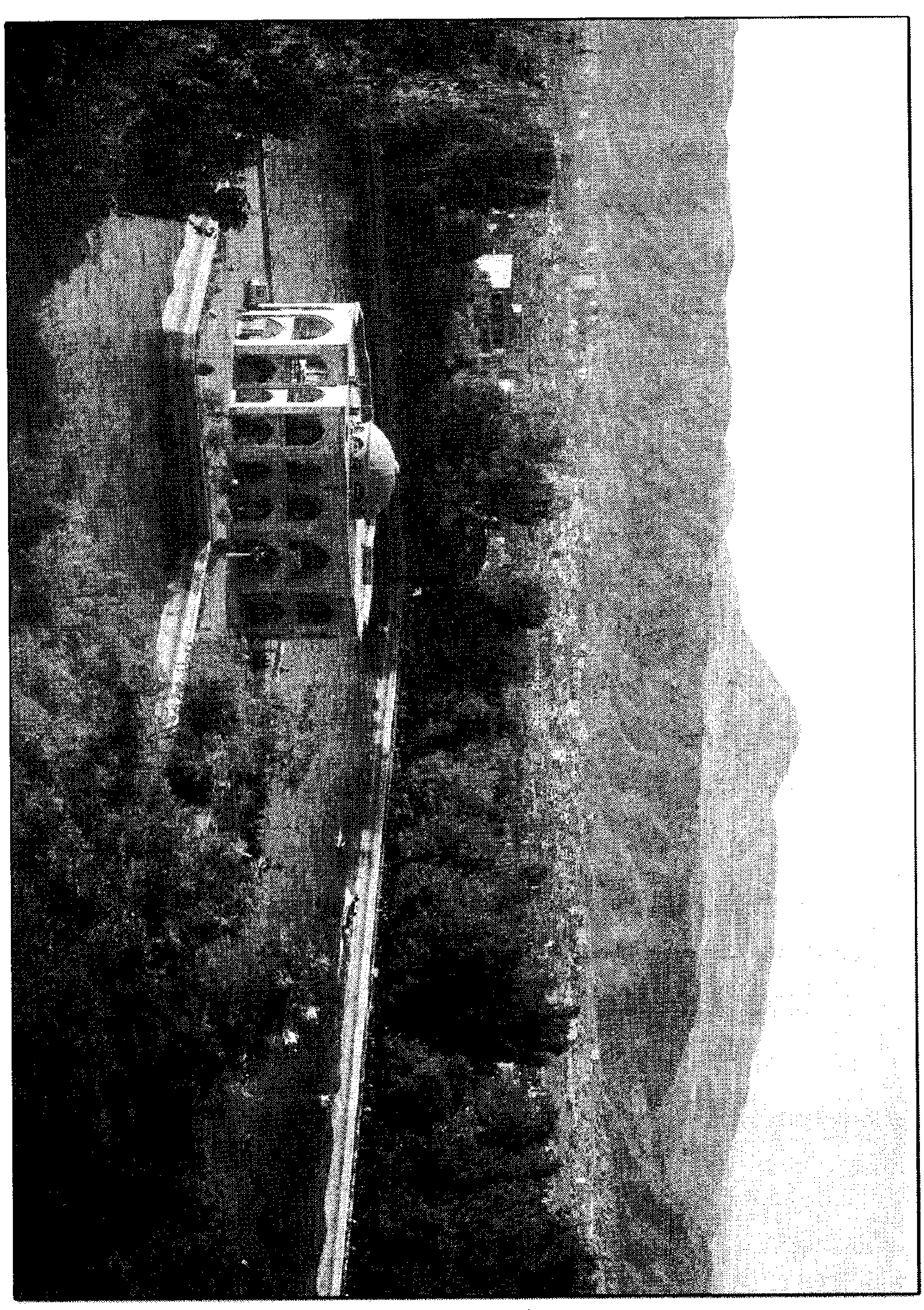


الطَّبيعة حول بحيرة وان





الطبيعة قرب بحيرة وان



صورة لمدينة تبريز اليوم

نتائج تشالديران

تشالديران معركة حاسمة بين العثمانيّين والصَّفويّين، جرت في سهل تشالديران بالقرب من تبريز، فعُرِفت بهذا الاسم، رسمت الحدود الشَّرقيَّة للوطن العربي وتركية، هُزِم فيها الصَّفويُّون هزيمة نكراء، وفرَّ في نهايتها الشَّاه إسماعيل، ووصل إلى عاصمته تبريز، فلمَّا دخلها في أثناء الليل، اجتمع عليه من كان قد سبقه إليها من القوّاد والجنود، وكانوا نحو سبعة آلاف جندي.

ودخل السُّلطان سليم الأوَّل مدينة تبريز عاصمة الصَّفويّين[1]، ففرَّ الشَّاه ومن فيها، لذلك كانت المدينة شبه خالية من المؤن والأغذية، ولهذا انتشر بها القحط والغلاء، فلما رأى السُّلطان سليم هذا أمر بإخلاء المدينة من الجنود، حتَّى يخفف من وطأة القحط، فلمَّا ابتعد نحو عشرة كيلومترات، عاد إليها الشَّاه إسماعيل الصفوي.

(١) دخلها العثمانيُّون مرات:

- ١٤ رجب ٩٢٠هـ/ ٤ أيلول (سبتمبر) ١٥١٤م دخلها سليم الأول.
- غرَّة محرم ٩٤١هـ/ ١٣ تموز (يوليو) ١٥٣٤م دخلها سليمان الأوَّل القانوني.
- وعاد ودخلها سليمان القانوني سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٨م.
- ودخلها مراد الثالث سنة ٩٩٤هـ/ ١٥٨٦م.

ويقال: إنَّه كان متبقياً بها نحو خمسة وأربعين ألف عثماني، انقض عليهم الأهالي وقطعوا رؤوس أغلبهم، وحملوها على الرِّماح، وخرجوا يستقبلون الشَّاه إسماعيل الصفوي، كما دارت بعد ذلك بعض المعارك بين الجانبين في أثناء انسحاب العثمانيِّين إلى بلادهم، قُتِل فيها عشرات الآلاف من الجانبَيْن.

مكث السُّلطان سليم الأول أُسبوعاً في مدينة تبريز، وكان منعقد العزم على إتمام خطَّته الحربيَّة في إيران، إلاَّ أنَّ جنده أرادوا العودة إلى بلادهم، فتوقفوا عن القتال لاشتداد البرد وتأذِّيهم من الزَّمهرير، وقلة الزّاد، فتمرّدوا على السُّلطان، فقفل راجعاً إلى أماسية في الأناضول، إلاَّ أنَّه لم يفلت من تمرَّد عليه من الجند، فقتل كثيراً منهم، ومن قادتهم، وقتل قاضي العسكر جعفر جلبي، لأنَّه أوعز إليهم أن يعصوا السُّلطان، وأن يكفُّوا عن التَّقدُّم.

وبعد تشالديران فُتِحَت أمام العثمانيِّين طرق أذربيجان والقوقاز وبغداد، بعد ضمِّ المناطق الجبليَّة الممتدَّة من أرضروم إلى ديار بكر، واعتراف الحكام المحليِّين وزعماء العشائر في هذه المناطق بالسِّيادة العثمانيَّة[1].

---

(١) تاريخ الدولة العثمانيَّة من النُّشوء إلى الانحدار، د. خليل إينالجيك، ٥٢، دار المدار الإسلامي، بيروت ط١/٢٠٠٢م.

وترتَّب على هذا النَّصر دخول إقليم أذربيجان وكردستان في حوزة العثمانيِّين.

وكانت هزيمة الشَّاه إسماعيل الصَّفوي قد ذاعت في كلِّ أنحاء إيران وبلاد ما وراء النَّهر، فتجمَّع الأوزبك بقيادة عُبَيْد خان، وتقدَّموا إلى هراة فاستولوا عليها، ثمَّ دخلوا مشهد التي أخلاها القزلباشيَّة، وواصلوا تقدُّمهم إلى نيسابور وسبزوار، وظلَّ الأوزبك في خراسان عامَيْن، كان فيهما الشَّاه إسماعيل الصفوي مشغولاً بالمحافظة على المناطق الغربيَّة لبلاده خوفاً من العثمانيِّين، ولكن حينما علم بوفاة السُّلطان سليم سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، وتولِّي ابنه سليمان (القانوني) السُّلطة، وانصرافه عن إيران، جمع جيشه وتوجَّه من قزوين إلى خراسان، ليخلِّصها من أيدي الأوزبك الذين أخلوها له، وعادوا إلى ما وراء النَّهر، ودخل الصَّفويُّون مشهد وهراة دون قتال.

وكان ملوك الكرج (جورجية) قد انتهزوا فرصة انشغال إسماعيل الصفوي، وأرادوا التَّقدُّم لاحتلال أردبيل وقزوين العاصمة بعد تبريز، فأرسل لهم الشَّاه إسماعيل أحد قوَّاده واسمه ديو سلطان[1]، فخاض عدَّة حروب ضدهم، واستطاع الاستيلاء على كثير من مدنهم، ومنها شيروان وتفليس.

---

(١) وقد تنطق ديف، ومعناها الشَّيطان .Devil

أنهكت كلُّ هذه الحروب، وخاصَّة هزيمة تشالديران صحة الشَّاه إسماعيل الصَّفوي، وأُصيب بنوعٍ من الانطوائيَّة والحزن أدَّت في النَّهاية إلى إصابته بالسّل، وتوفِّي في عنفوان شبابه سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م، وكان آنذاك في الثَّامنة والثلاثين من عمره.

وهكذا انتهت حياة الشاه إسماعيل الصَّفوي الذي أسَّس دولته على بناء مذهبي متطرِّف ومتشدِّد، لكي يستغل الوازع الدِّيني، والعاطفة المذهبيَّة، حتى حارب المسلم أخاه المسلم، وقُتِل على يديه مئات الألوف من المسلمين دون ذنب أو جريرة، إلاَّ عدم دخولهم في مذهبه، بعد أن قدَّم خدمة لدول الغرب لا تقدَّر بثمن، لقد أوقف الفتح في القارة الأوربية، وقد أضحت (فيينَّة) عاصمة النِّمسة في قبضة العثمانيِّين، فهنئوا وسعدوا بالصِّراع الذي نقل إلى أرض الإسلام، وبين أبنائه، فسلموا وسلمت بلادهم بسبب حقد الشَّاه إسماعيل على كلِّ مسلم في العالم إن لم يكن على مذهبه، فاستحل الدِّماء، وحالف الأعداء.

❋ ❋ ❋

ما بعد تشالديران
العثمانيون والمماليك

ازداد النفور بين العثمانيين ومصر، بسبب:

١- لم يبايع جم بن محمد الفاتح أخاه بيازيد الثاني، وجمع جنداً في كرمان، وداهم بروسة واحتلها، ولكن السلطان بيازيد الثاني سيّر له جيشاً، فانهزم جم وفرّ وهو جريح، ووصل قونية، ومنها سار مع أتباعه إلى مصر سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م، فأكرمه السلطان قايتباي وحماه.

٢- لتعدي المماليك على ولاية ذي القدر[١] التابعة للدولة العثمانية، فأراد السلطان تأديبهم، خصوصاً وأن جيشاً عثمانياً هُزِم شمال الإسكندرونة، مع تكرر تجاوز المماليك الحدود، حتى

---

(١) ذو القدر، أو أبناء ذو القادر في مرعش والبستان وما حولها وملطية وخربوت (٧٤٠-٩٢٨هـ/ ١٣٣٩-١٥٢١م)، أوّل أمرائهم زين الدين عبد الرّشيد قراجا بن ذو القادر ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م، وآخرهم علي بك بن شاه سوار (٩٢١-٩٢٨هـ/ ١٥١٥-١٥٢١م)، ثم ضمّها العثمانيون. (الدّول الإسلاميّة ٤٥٤).

وصلوا في إحدى المرَّات إلى قيصرية، وأرسل المماليك الأسرى للسُّلطان العثماني وإبلاغه أنَّه لا يسرُّهم تحارُبُ المسلمين بعضهم مع بعض.

٣- وفي سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، أعلم الشَّاه إسماعيل الصَّفوي ملكَ مصر قانصوه الغوري بما مضمونه أنَّ السُّلطان سليم ذو جبروت، وأنَّ العثمانيِّين في نموٍّ مدهش، ودولة العجم الصَّفويَّة ومصر المماليك مهدَّدتان منها.

تحالف قانصوه الغوري سلطان المماليك مع الشَّاه إسماعيل الصَّفوي لمحاربة الدَّولة العثمانيَّة، ولما علم الغوري تأهُّب السُّلطان سليم الأوَّل لمحاربته، أرسل إليه رسولاً يعرض عليه أن يتوسَّط بينه وبين العجم لإبرام الصُّلح، فلم يقبل، بل طرد السَّفير بعد أن أهانه، وسار بجيشه إلى بلاد الشام قاصداً مصر.

مرج دابق

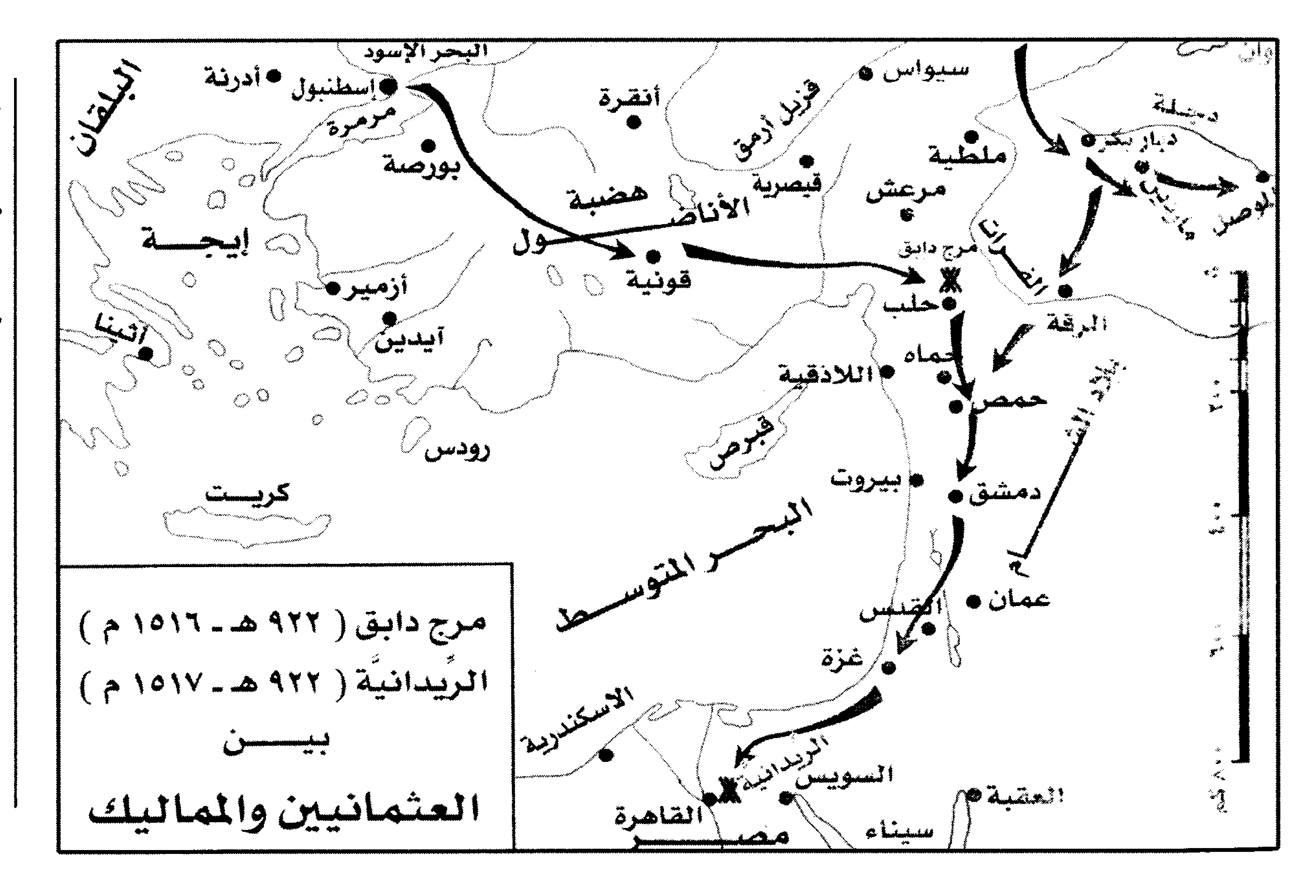
استعدَّ الغوري لمحاربة سليم الأول، فتقابل الجيشان يوم الأحد ٢٥ رجب ٩٢٢هـ/ ٢٤ آب (أُغسطس) ١٥١٦م شمال حلب، في مرج دابق، وهُزِم الغوري لخيانة بعض أُمرائه، وبسبب المدفعيَّة العثمانيَّة، وقُتِل الغوري في أثناء انهزام الجيش، وعمره ثمانون سنة.

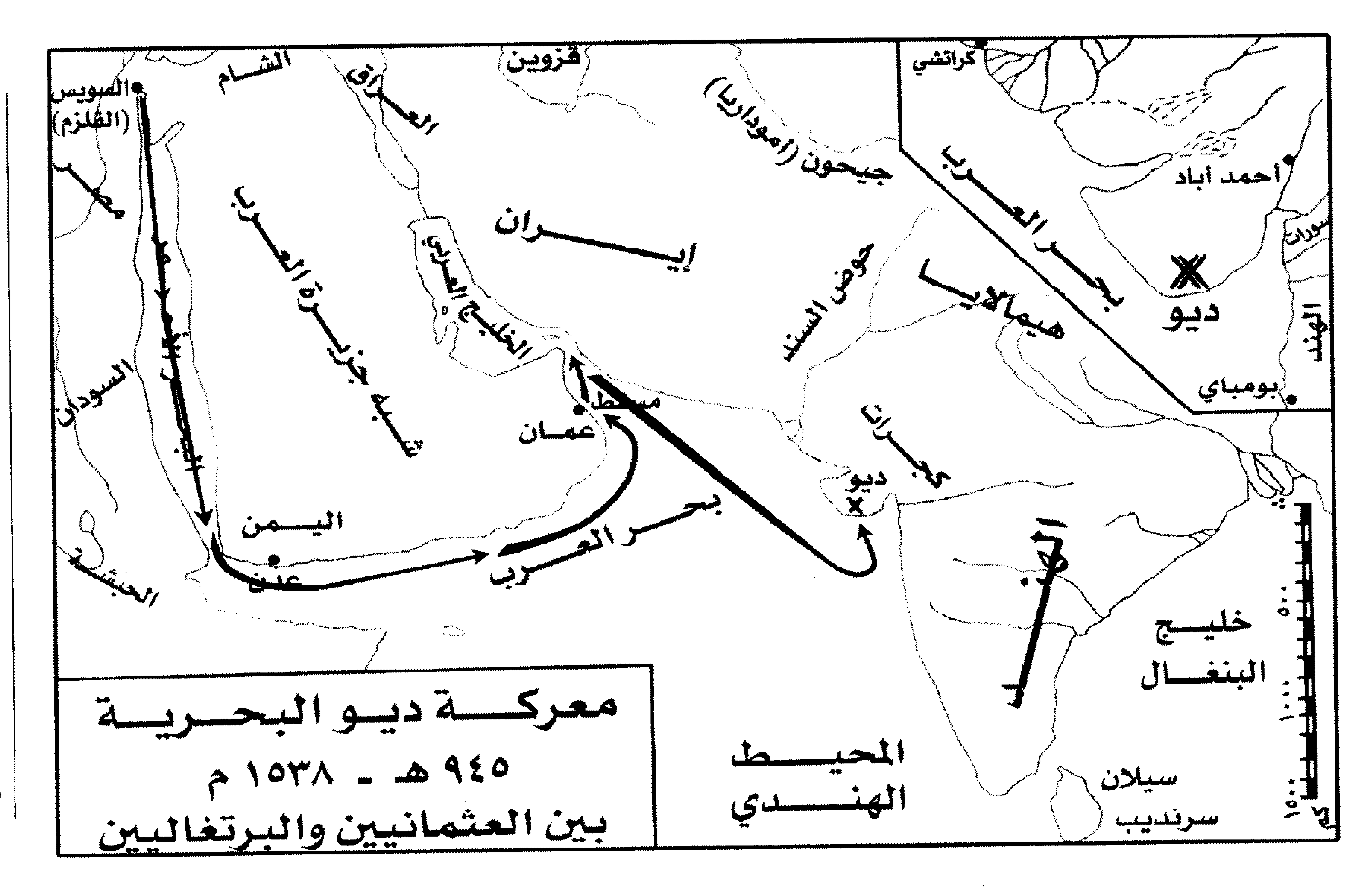
سار سليم الأول جنوباً بكلِّ سهولة، ودخل حماة وحمص

ودمشق، وعيَّن بها ولاة تابعين له، وقابل من بالمدن من العلماء، وأحسن وفادتهم، وفرَّق الإنعامات على المساجد، وأمر بترميم الجامع الأُموي بدمشق، ولمَّا صلَّى السُّلطان الجمعة به، أضاف الخطيب حينما دعا له عبارة «خادم الحرمين الشَّريفين» لأوَّل مرة، وبقيت حتَّى سقوط الدَّولة العثمانيَّة.

الرَّيدانيَّة

انتخب المماليك طومان باي خلفاً للسُّلطان قانصوه الغوري لمَّا وصلهم خبر موته، وأرسل إليه السُّلطان سليم الأول يعرض عليه الصُّلح، بشرط اعترافه بسيادة العثمانيِّين على مصر، فلم يقبل، واستعدَّ لملاقاة جيش العثمانيِّين، ولكن العثمانيِّين دخلوا غزَّة، وهزموا مقدِّمة جيش المماليك، وساروا نحو القاهرة، حتَّى وصلوا بالقرب منها، وفي ٢٩ ذي الحجَّة سنة ٩٢٢هـ/ ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٥١٧م بدأت المعركة الحاسمة التي عُرِفت بالرِّيدانيَّة، وفي أثناء القتال قصد طومان باي وبعض الشُّجعان مركز السُّلطان سليم الأول، وقتلوا من حوله، وأسروا وزيره سنان بك وقتله طومان باي بيده ظنّاً منه أنَّه هو السُّلطان سليم الأوَّل، ولم تنفع شجاعتهم شيئاً، بل تغلَّب عليهم بمدافعه وبمدافعهم التي استولى عليها زمن الحرب.


مرج دابق (٩٢٢ هـ - ١٥١٦ م)
الرِّيدانيَّة (٩٢٢ هـ - ١٥١٧ م)
بين
العثمانيين والمماليك
البلقان
البحر الإسود
أدرنة
إسطنبول
مرمرة
بورصة
إيجة
أثينا
أزمير
آيدين
رودس
كريت
أنقرة
هضبة الأناضول
قونية
سيواس
قزيل أرمق
قيصرية
ملطية
مرعش
مرج دابق
حلب
حماه
حمص
اللاذقية
قبرص
بيروت
دمشق
البحر المتوسط
عمان
القدس
غزة
الإسكندرية
الريدانية
القاهرة
السويس
مصر
سيناء
العقبة
الرقة
بلاد الشام
ديار بكر
دجلة


معركة ديو البحرية
٩٤٥ هـ - ١٥٣٨ م
بين العثمانيين والبرتغاليين
السويس
(القلزم)
مصر
الشام
العراق
قزوين
السودان
الحبشة
شبه جزيرة العرب
الخليج العربي
إيران
جيحون (آموداريا)
حوض السند
اليمن
عدن
عمان
مسقط
بحر العرب
ديو
كجرات
هيمالايا
المحيط
الهندي
خليج
البنغال
سيلان
سرنديب
كراتشي
أحمد أباد
بحر العرب
ديو
بومباي
سورات
الهند
٥٠٠
١٠٠٠
١٥٠٠
كم

وفي ٨ المحرَّم ٩٢٣هـ/ ٣١ كانون الثَّاني (يناير) ١٥١٧م دخل العثمانيُّون مدينة القاهرة، على الرَّغم من مقاومة المماليك الذين حاربوهم من شارع لآخر، ومن منزل لآخر، حتَّى قُتِل منهم ومن أهالي البلد حوالي خمسين ألف نسمة.

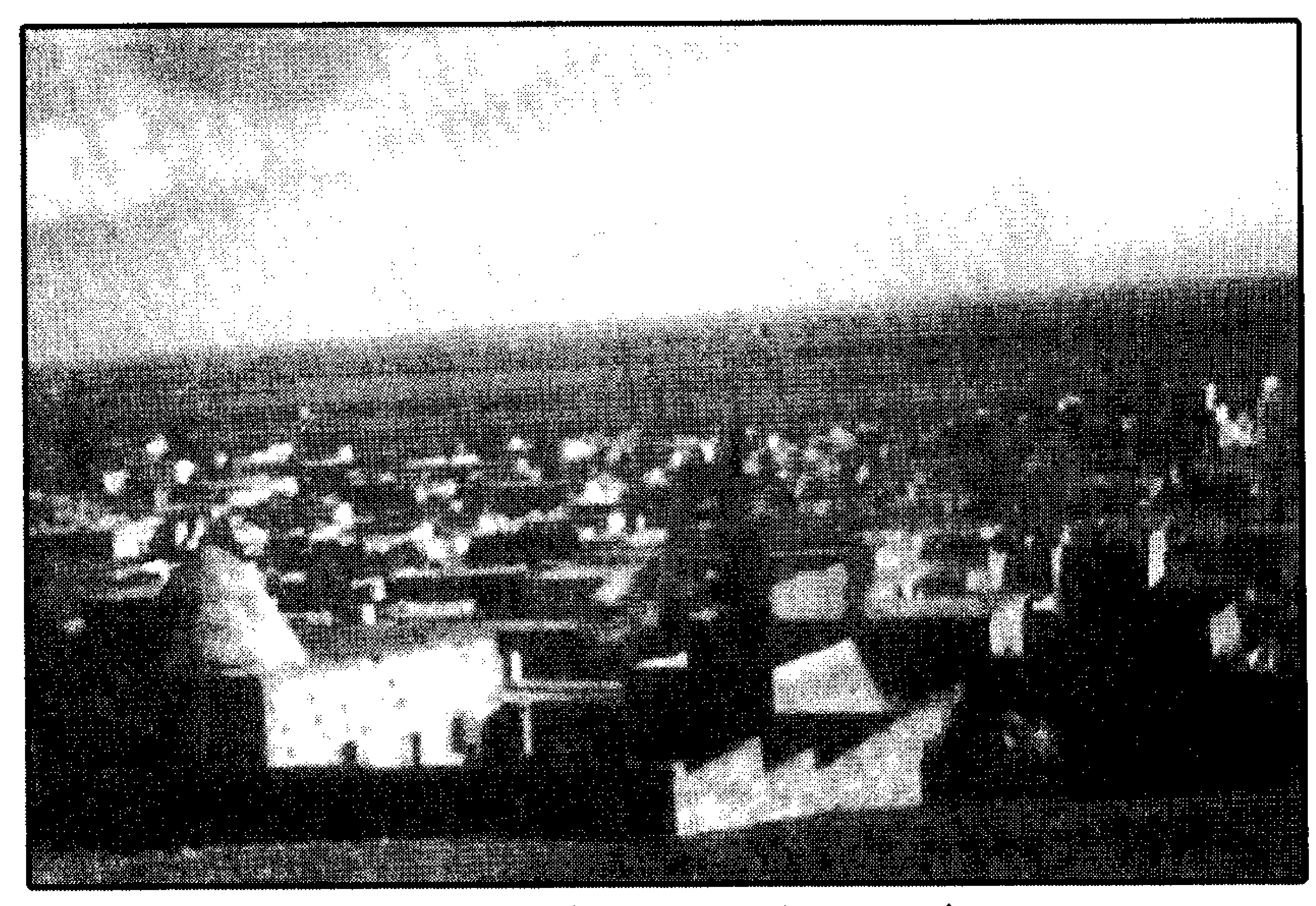
ووقع طومان باي بيد العثمانيِّين، فشُنِق في ٢١ ربيع الأول ٩٢٣هـ/ ١٣ نيسان (أبريل) ١٥١٧م بباب زويلة، وانتهت بذلك دولة المماليك، ولكن بقيت قوَّتهم حاضرة في مصر، ولم يقضِ عليهم نهائياً إلاَّ محمد علي باشا سنة ١٨١١م في مذبحة القلعة.

وحضر السُّلطان سليم الأوَّل المحمل الشَّريف وقافلة الحجَّاج التي ترسل معها الكسوة الشَّريفة إلى الأراضي الحجازيَّة، وأرسل الصُّرَّة المعتاد إرسالها إلى الحرمَيْن بقصد توزيعها على الفقراء من عهد السُّلطان محمد جلبي العثماني.

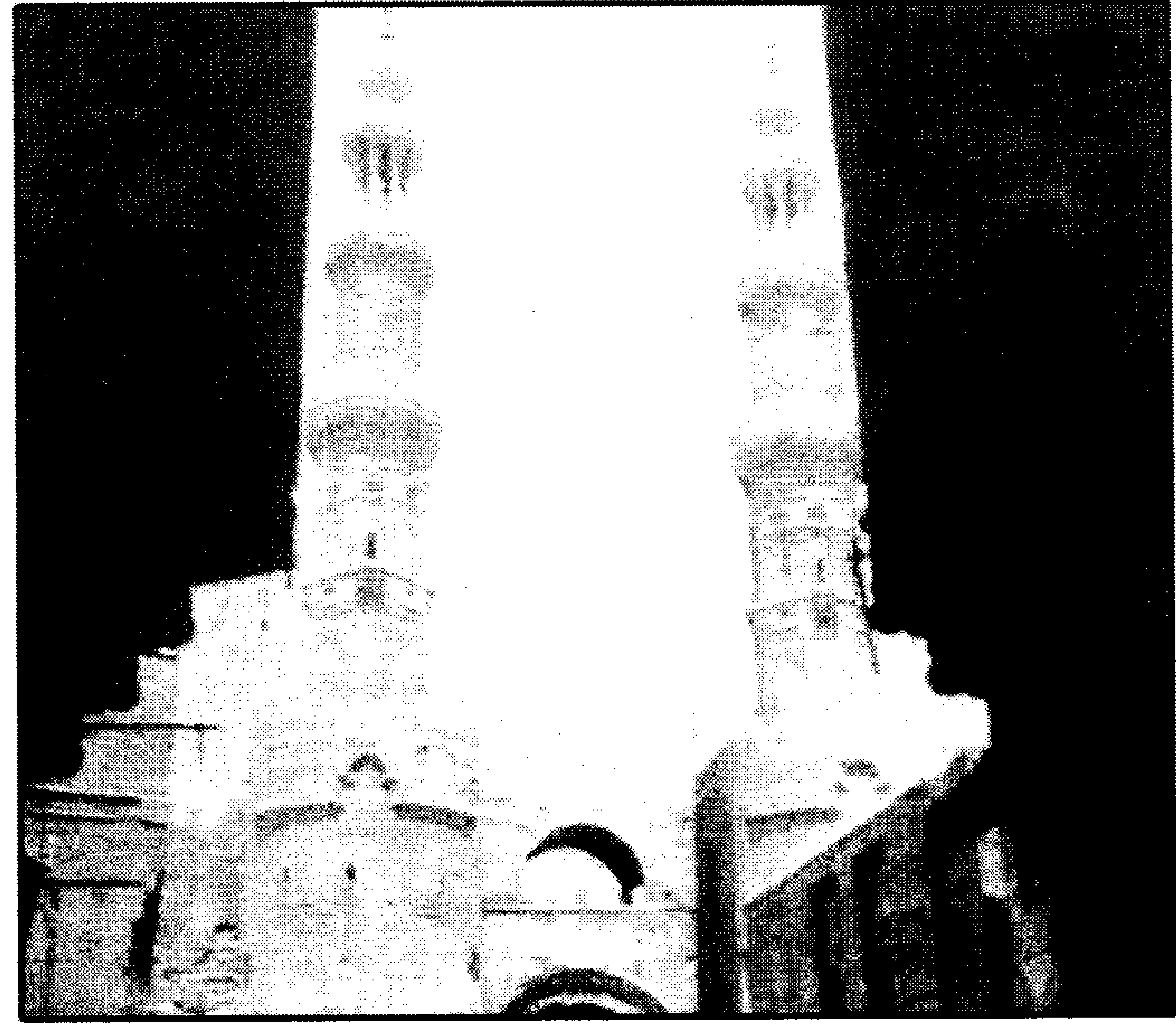
وممَّا جعل لفتح مصر أهميَّة تاريخيَّة عظمى، أنَّ محمد المتوكِّل على الله، آخر ذرِّيَّة الدَّولة العباسيَّة الذي حضر أجداده إلى مصر بعد سقوط بغداد مقرِّ الخلافة العباسيَّة في قبضة هولاكو سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، كانت له الخلافة بمصر اسميّاً، تنازل عن حقِّه في الخلافة الإسلاميَّة إلى السُّلطان سليم الأول العثماني، وسلَّمه الآثار النَّبوية الشريفة، وهي البيرق والسَّيف والبردة، وسلَّمه أيضاً مفاتيح الحرمين الشريفين، ومن ذلك التَّاريخ صار كلُّ سلطان عثماني أميراً للمؤمنين، وخليفة على المسلمين اسماً وفعلاً.



قانصوه الغُوري



دابق وفي مقدمة الصورة قبر سليمان بن عبد الملك



باب زويلة بمئذنتيه



مذبحة القلعة ١٨١١م

وأمر السُّلطان سليم الأول بقبول أبناء المماليك في الجيش العثماني، وتبقى لهم أموالهم وعقاراتهم بمصر وملحقاتها، كما كانوا، فهم مسلمون.

وفي أوائل أيلول (سبتمبر) ١٥١٧م سافر السُّلطان سليم الأول من القاهرة عائداً إلى القسطنطينيَّة، التي صارت من ذلك الوقت مقرَّ الخلافة الإسلاميَّة.

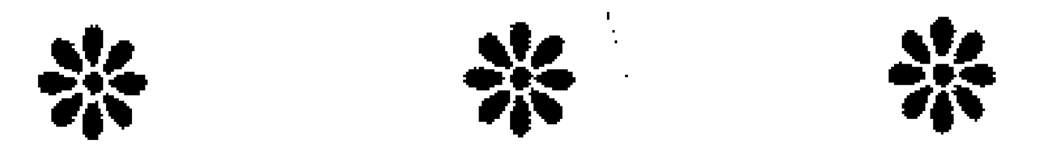
وفي ٢٠ رمضان ٩٢٣هـ/ ٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥١٧م وصل السُّلطان سليم دمشق، وحضر الاحتفال بإقامة الصَّلاة أوَّل مرَّة في الجامع الذي أقامه بدمشق على قبر محي الدِّين بن العربي في ٢٤ المحرم ٩٢٤هـ/ شباط (فبراير) ١٥١٨م، ووصل إلى القسطنطينيَّة في ١٧ رجب ٩٢٤هـ/ ٢٥ تموز (يوليو) ١٥١٨م.

ديو البحريَّة Diu

وصل إلى الخليفة العثماني سليمان خان الأول القانوني سنة ١٥٣٧م سفير من قبل صاحب دهلي بالهند، يستنجد به، وأرسل صاحب كاجورات أيضاً من يطلب عوناً ضد البرتغاليِّين الذين احتلوا أهمَّ ثغورها.

أرسل السُّلطان سليمان خان الأوَّل إلى سليمان باشا والي مصر بتجهيز أُسطول بحري بثغر السُّويس على البحر الأحمر لمحاربة البرتغاليِّين، وفتح عدن وبلاد اليمن، حتَّى لا تستولي

عليها البرتغال، أو أي دولة أوربيَّة أُخرى، فصدع سليمان باشا بأمره، وشيَّد عمارة بحريَّة هائلة مؤلَّفة من سبعين سفينة، وسلَّحها بالمدافع، وسار بها في حزيران (يونيو) ١٥٣٨م، ومعه عشرون ألف جندي، فاحتل عدن ومسقط، وحاصر جزيرة هرمز عند مدخل الخليج العربي، وطرد الأُسطول البرتغالي من هناك كليّاً، ثمَّ قصد كاجورات، وفتح أغلب الحصون التي أقامها البرتغاليُّون هناك، لكنه أخفق أمام ثغر ديو، بعد أن حاصره مدَّة، ثم قفل راجعاً ممَّا غنم، وفتح باقي إقليم اليمن، وجعله ولاية عثمانيَّة.



خاتمـــة

قدَّمت هذه الأجزاء العشرين، التي شكَّلت سلسلة (المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام)، وكنت أنوي منذ الجزء الأوَّل الذي صدر سنة ١٩٦٩م أن أُنهي هذه السلسلة بآداب الحرب في الإسلام، والتي لخصها أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه بوصيَّته لجيش أُسامة بن زيد، وفوجئت باللَّجنة الدوليَّة للصَّليب الأحمر في جنيف[1]، تصدر كرَّاساً أنيقاً ملوّناً، بصور تاريخيَّة هامَّة عنوانه: Chronicles of Islamic - arab history، (وقائع من التَّاريخ العربي الإسلامي)، جاء في مقدِّمته حرفياً:

بإطلالة واعية على التُّراث العربي الإسلامي العريق، يتبيَّن لنا مدى حرصه على تأكيد تقاليد الفروسيَّة، حيث أضفى عليها صبغته الإنسانيَّة، وحثَّ على التَّقيُّد بها، من حيث الاحترام المتبادل.. وهو في ذلك يتَّفق مع نصوص وروح القانون الدَّولي الإنساني، الذي يحتِّم حماية حقوق المقاتلين، وضحايا النِّزاعات

---

(١) وعنوانها: Avenue De La Paix, 1202 GENEVA 19، تليفاكس (٠٢٢) ٧٣٣٢٠٥٧.

المسلَّحة، ويقيِّد من وسائل استعمال القوَّة بقصر استعمالها ضد المقاتلين في أثناء المعارك الحربيَّة، وحظر استعمالها ضد المدنيِّين أو الجرحى من المقاتلين الذين حيَّدتهم إصاباتهم.

إنَّ النَّظرة المتأنية لتبيِّن بجلاء ووضوح مدى حرص شريعة الإسلام السمحاء، وحرص قادة جيوش المسلمين على احترام إنسانيَّة الخصم، سواء كان هذا الخصم مقاتلاً أو أسيراً أو مدنيّاً أعزل، ممَّا يؤكِّد أنَّ هذه الشَّريعة كانت إحدى الموارد التي نهل منها القانون الدَّولي الإنساني[1] قواعده ومبادئه السَّامية.

ذهب الإمامان مالك والأوزاعي إلى: «لا يجوز بحال من الأحوال قتل النِّساء والصبيان من الأعداء، ولو تترَّس بهم أهلُ الحرب»، وجاء القانون الدَّولي الإنساني يؤكِّد على هذا في الاتفاقيتين الأولى والثانية والبروتوكول الأول.

---

(١) القانون الدولي الإنساني يعتمد مصدراً له على: اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩، التي صدَّقت عليها ١٨١ دولة، والبروتوكولَيْن (الملحقَيْن) الإضافيَّين لاتفاقيات جنيف، والصادرين عام ١٩٧٧م، وقد صدَّق على البروتوكول الأول لعام ١٩٧٧م: ١٢٦دولة حتى الآن، وقد صدَّق على البروتوكول الثاني لعام ١٩٧٧م: ١١٧ دولة حتى الآن، ومبادئ القانون الدولي كما استقر بها العُرف ومبادئ الإنسانيَّة والضَّمير العام، بالإضافة إلى القواعد الإنسانيَّة المستمدَّة من أي اتِّفاق دولي.

وإذا كان القانون الدولي الإنساني قد أتى بمنظومة من القواعد والمبادئ تهدف إلى حماية ضحايا النِّزاعات المسلَّحة، بحيث تكفل لهم الرِّعاية والعناية الكافية، علاوة على توفير الاحترام والحماية لهم في حالة وفاتهم أو فقدهم، فضلاً عن حماية السُّكان المدنيِّين.. وهذه القواعد مستقرَّة في الفقه الإسلامي، الذي أرسى قواعد المعاملة الإنسانيَّة للعدو الذي لا يستطيع قتالاً، وميَّز بين المقاتلين وغير المقاتلين، وضمن حصانه المبعوثين والرُّسل وحظر الخيانة في الحرب، لقد أوجب الإسلام حسن معاملة الجرحى والمرضى، وحرَّم مقاتلتهم أو قتلهم أو المثلة بهم.

جاء في القرآن الكريم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/٨]. وقال الرَّسول ﷺ: «استوصوا بالأسرى خيراً»، وحثَّ المسلمين على حُسْنِ معاملتهم منذ أكثر من ألف سنة، حيث كان الأسرى يُقتَلُون ويُعَذَّبون وتُقَطَّع أطرافهم ثمَّ يستعبد بعض منهم.

وكتب الفقه تزخر بالكثير من الكتابات تحت مصنَّف السِّيَر أو المغازي، حيث أضاف الفقهاء التَّفريعات تكملة للأُصول، وواصلوا الأحكام فقدَّم اجتهادهم نظريَّة متكاملة في القانون الدَّولي الإنساني المعاصر، سبقت به الشَّريعة الإسلاميَّة المجتمع الدَّولي بأكثر من ألف عام، بل ولا تزال تسبق بما يطالب به الفقهاء المعاصرون بمزيد من الحماية لضحايا النِّزاعات المسلَّحة.

ما سبق، نصوص من كرَّاس اللَّجنة الدولية للصَّليب الأحمر في جنيف، وكما ذكر زميل متخصِّص بالقانون الدولي أنَّ سبعين إلى ثمانين بالمئة في القانون الدَّولي الإنساني، المصادق عليه من كلٍّ دول العالم مقتبس من قوانين الحرب في الشريعة الإسلاميَّة، ولكن شتَّان، فهو في القانون الدولي الإنساني توصيات طالما خُرِقت بلا رقيب أو وازع من ضمير، بينما هي في الإسلام عقيدة يلتزم بها برقيب ذاتي، ومحاسبة من الله تعالى.

ثم أورد الكرَّاس نماذج من تاريخنا الإسلامي وتطابقه مع القانون الدولي الإنساني بطريقة مناسبة، حيث في الصَّفحة الواحدة، النَّصُّ من التاريخ الإسلامي على يمين الصَّفحة، وعلى يسارها ما يناسب من القانون الدَّولي الإنساني، وبين النَّصَّيْن صورة ملوَّنة مناسبة، وأمثلة ذلك:

في الإسلام: النَّفس الإنسانيَّة أشرف النُّفوس في هذا العالم، (فخر الدِّين الرَّازي في تفسيره).

في القانون الدولي، المادة الثَّالثة: لأسرى الحرب في جميع الأحوال حقُّ احترام أشخاصهم وشرفهم.

في الإسلام: من جميل عادة المسلمين، وكريم أخلاقهم، أن القائد أو الأمير إن أُسِرَ - أو أي أسير - إذا أكل أو شرب من مال آسره صار آمناً.

وفي القانون الدَّولي، المادة السَّادسة عشرة من الاتفاقيَّة الثالثة الخاصَّة بمعاملة أسرى الحرب أشارت إلى المعاملة الأفضل، التي تمنح بسبب الحالة الصِّحيَّة للأسير أو وقفاً لعمرة أو مؤهَّلة أو مهنته، ونصَّت المادة الرَّابعة والأربعين من الاتفاقية ذاتها على أنه يجب معاملة الضُّباط ومن في حكمهم من الأسرى بالاعتبار الواجب لرتبهم وسنِّهم.

في الإسلام: لا يُقتَل طفل ولا شيخ ولا امرأة، ولا تهدم المعابد، ولا تعقر نخلة، ولا تقطع شجرة مثمرة، ولا تُذبَح شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاَّ لمأكلة.

وفي القانون الدولي، المادة ٥١: السُّكان المدنيُّون لا يجوز أن يكونوا محلاً للهجوم، وفي المادة ٥٣: الأعيان الثقافيَّة، وأماكن العبادة لا تكون محلاً للهجوم أو الرَّدع، وفي المادة ٥٤: يحظر مهاجمة أو تدمير المواد الغذائيَّة، والمناطق الزِّراعيَّة والمحاصيل، والماشية، ومرافق المياه.. التي لا غنى عنها لبقاء السُّكان المدنيِّين.

في الإسلام: لا يفرَّق بين أفراد العائلات التي وقعت في الأسر.

وفي القانون الدولي نصَّت المادة ٨٢ من اتفاقيَّة جنيف الرابعة لعام ١٩٤٩م: يقيم أفراد العائلة الواحدة، وعلى الأخصِّ الوالدان والأطفال معاً طوال مدَّة الاعتقال في معتقل واحد..

ويجوز للمعتَقَلين أن يطلبوا أخذ أطفالهم غير المعتقلين والذين يتركون دون رعاية عائليَّة، ليعتقَلُوا معهم، يقيم أفراد العائلة الواحدة المعتقلون كلما أمكن في المبنى نفسه، ويخصَّص لهم مكان إقامة منفصل عن باقي المعتقلين، مع التَّسهيلات اللازمة للمعيشة في حياة عائليَّة.

كما نصَّت المادة ٧٤ من البروتوكول الأول الملحق باتفاقيات جنيف الأربعة على جمع شمل الأُسر المشتَّتة نتيجة المنازعات المسلَّحة.

في الإسلام: لا يجهز على جريح، ولاتكشف عورة، ولا يُمَثَّل بقتيل، ولا يهتك ستر..

وفي النِّظام الدَّولي نظَّم البروتوكول الأول لعام ١٩٧٧م، والملحق بأحكام اتِّفاقيَّات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩م، المادة ٤٠: يحظر الأمر بعدم إبقاء أحد على قيد الحياة، أو تهديد الخصم بذلك، أو إدارة الأعمال العدائيَّة على هذا الأساس، والمادة ٤١: لا يجوز أن يكون الشَّخص العاجز عن القتال محلاً للهجوم، والمعروف أنَّ الأسرى والجرحى يعتبرون عاجزين عن القتال.

في الإسلام: مقابلة الغدر بالوفاء خير من مقابلة الغدر بالغدر.

ونصَّت اتفاقيّات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩م على حظر المعاملة الثَّأريَّة ضد ضحايا النزاعات المسلحة.

في الإسلام: حمل عتبة بن عامر الجهني إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه رأس أحد القتلى من المشركين، فغضب أبو بكر لذلك، وكتب إلى قوَّاده: «لا يحمل إليَّ رأس وإلاَّ بغيتم - أي جاوزتم الحدَّ للتَّشفي - ولكن يكفيني الكتاب والخبر».

وأشارت اتفاقيَّة جنيف الأُولى لعام ١٩٤٩م إلى تنظيم دفن الموتى، واحترام جثثهم، كما ألزمت المادة ٣٤ من البروتوكول الأول باحترام رفات الأشخاص الذين يتوفَّون بسبب الاحتلال أو في أثناء الاعتقال، أو بسبب العمليَّات الحربيَّة.

في الإسلام: وفد قوم من أهل سمرقند على الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، وشكوا إليه قتيبة بن مسلم الباهلي، حيث دخل مدينتهم غدراً، وأسكن فيها المسلمين، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه في سمرقند سليمان بن أبي السُّرِّي وأمره بأن يرفع شكواهم إلى القاضي جُمَيْع بن حاضر النَّاجي، فإن ثبتت الواقعة يأمر بإخراج المسلمين من سمرقند، وقام القاضي بتحقيق الواقعة، وأمر بإخراج المسلمين من المدينة.

وهذه قضيَّة خالدة في تاريخ الإسلام وقضائه بلا جدال، ونوع فريد من قضايا العالم بلا خلاف، أن تحكم الدولة القوية

المنتصرة على نفسها، وهي في أوج عزَّتها في فتوحها، بل إنَّها (القطب الوحيد المتفرد)، وهنا الفارق بين قطب واحد حاكم متصرِّف بلا رقيب ولا ضمير، وبين قطب واحد برقيب هو الله تعالى وشرعته.

وفي القانون الدَّولي، ألزمت المادة الأولى من اتِّفاقية لاهاي الثالثة لعام ١٩٠٧م الأطراف المتعاقدين بألاَّ يبدؤوا ممارسة أعمال الحرب قبل إخطار سابق لا لبس فيه، ويكون إما في صورة إعلان حرب بسبب إنذار نهائي تذكر فيه الدَّولة موجِّهة الإنذار طلباتها، وتطلب إجابتها، وإلا عُدَّت الحرب قائمة.

إلاَّ أنَّ اتِّفاقيَّة لاهاي لا تتضمن جزاءً معيناً على الطَّرف المتسبِّب في نشوب الحرب، ومن ثم يخضع إعلان الحرب لقواعد المسؤولية الدولية التي يعالجها القانون الدولي العام.

❊ ❊ ❊

يقول تعالى في محكم التَّنزيل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٢٢/٣٩-٤٠].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ٢/١٩٠].

إنَّ الأساس الأخلاقي الذي قامت عليه الفتوحات الإسلامية، وكان عليه الجهاد، يستقيم مع كلِّ أساس سليم لكلِّ اعتقاد سليم قويم، وهو دستور خالد لآداب الحروب.

جاء في الطبري ٣/ ٢٢٦، والكامل في التَّاريخ ٢/ ٢٢٧:

قال الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه لجيش أُسامة بن زيد مودعاً:

«يا أيُّها النَّاس، قفوا أُوصيكم بعشر، فاحفظوها عنِّي:

١- لا تخونوا ولا تُغِلُّوا.

٢- ولا تغدروا ولا تمثِّلوا.

٣- ولا تقتلوا طفلاً صغيراً.

٤- ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة.

٥- ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه.

٦- ولا تقطعوا شجرة مثمرة.

٧- ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاَّ لمأكلة.

٨- وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.

٩- وسوف تَقْدُمُون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها.

١٠- وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسَّيف خفقاً، اندفعوا باسم الله».

فالمسلمون لا يقاتلون إلا المقاتل في ميدان المعركة، ضمن آداب محدَّدة لَخَّصها الصدِّيق رضي الله عنه لجيش أُسامة بن زيد، فهل ارتقى القانون الدولي الإنساني إليها، وإلى تطبيقها اليوم فيما نشهد من حروب؟

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٣٧].

تمت سلسلة:

المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ١٥].

صدق الله العظيم

مصادر ومراجع الأجزاء الخمسة الأخيرة

حطين، عين جالوت، أنقرة، القسطنطينية، تشالديران

- **أخطاء يجب أن تصحَّح في التَّاريخ الدولة العثمانية**، الدكتور جمال مسعود والدكتورة وفاء جمعة وعلي أحمد لبن، دار الوفاء المنصورة، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

- **أطلس التاريخ العربي الإسلامي**، الدكتور شوقي أبو خليل، دار الفكر - دمشق، الطبعة الخامسة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- **الأعلام**، خير الدين الزُّركلي، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٧٩م.

- **الأنيق في المناجيق**، الزردكاش بن أرتبغا، تحقيق الدكتور إحسان الهندي، جامعة حلب، معهد التُّراث ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- **الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية**، بسام عسلي، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

- **إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي**، نصر الله فلسفي، ترجمة محمد فتحي يوسف الرَّيس، دار الثقافة للطِّباعة والنشر - القاهرة ١٩٨٩م.

- **البداية والنهاية**، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدِّمشقي، مكتبة المعارف بيروت، ومكتبة النصر الرِّياض، الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

- **البويهيُّون والخلافة العباسيَّة**، الدكتور إبراهيم سلمان الكروي، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- **تاريخ ابن قاضي شهبة**، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧م.

- **تاريخ الخلفاء**، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد محي الدِّين عبد الحميد، المكتبة التِّجارية الكبرى، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

- **تاريخ الدولة العثمانية العليَّة، المعروف بكتاب التُّحفة الحليميَّة في تاريخ الدولة العليَّة**، إبراهيم حليم، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- **تاريخ الرُّسل والملوك**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٣م.

- **تاريخ سلاطين آل عثمان**، يوسف آصاف، تحقيق بسام الجابي، دار البصائر، دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- **تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة**، كارل بروكان، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٦٥م.

- **تاريخ العرب والشُّعوب الإسلامية**، كلود كاهن، دار الحقيقة - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

- **تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط**، شكيب أرسلان، دار الكتب العلميَّة، دون تاريخ.

- **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشَّام**، الدكتور محمد سهيل طقُّوش، دار النفائس - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

- **التَّشيُّع العلوي والتَّشيُّع الصَّفوي**، الدكتور علي شريعتي، دار الأمير - بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

- **تيمورلنك عصره حياته أعماله**، رسالة دكتوراه، الأستاذ مظهر شهاب، جامعة القدِّيس يوسف - بيروت ١٩٨١م، لم تطبع حتَّى ٢٠٠٥م.

- **تيمورلنك**، هارولد لامب، تعريب عمر أبو النَّصر، مطبوعات المكتبة الأهلية - بيروت، الطبعة الأُولى ١٩٣٤م.

- **الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية**، الدكتور حامد غنيم أبو سعيد، دار الثقافة للطّباعة والنَّشر - القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- **حاضر العالم الإسلامي**، لوثروب ستودارد، دار الفكر - بيروت، دون تاريخ.

- **الحركة الصليبية**، الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٣م.

- **دائرة المعارف الإسلامية**، دار الفكر - بيروت، دون تاريخ.

- **الدَّعوة إلى الإسلام**، السِّير توماس آرنولد، مكتبة النَّهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٥٧م.

- **دول الإسلام**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق حسن مروة، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

- **الدولة العثمانية عوامل النَّهوض وأسباب السقوط**، الدكتور علي محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

- **الدُّول الإسلاميَّة**، ستانلي لين بول، نقله من التُّركية إلى العربية محمد صبحي فرزات، مكتبة الدراسات الإسلامية بدمشق، دون تاريخ.
- **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، الدكتور عبد العزيز الشّناوي، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ١٩٩٢م.
- **ذيل الرَّوضتين تراجم رجال القرنَيْن السادس والسابع**، شهاب الدين المقدسي (أبو شامة)، دار الجيل، دون تاريخ.
- **رحلة ابن بطوطة (أدب الرِّحلات)**، دار التراث - بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- **السلطان محمد الفاتح، فاتح القسطنطينيَّة وقاهر الرُّوم**، الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي، دار القلم، دمشق - بيروت، سلسلة أعلام المسلمين.
- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تقي الدِّين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق الدكتور نقولا زيادة، بدء نشر الجزء الأول ١٩٣٦م.
- **الشَّقائق النُّعمانيَّة في علماء الدولة العثمانية**، طاشكبري زادة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، أحمد بن علي القلقشندي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، والمؤسسة المصريَّة العامة للتَّأليف والترجمة والطِّباعة والنشر، دون تاريخ.

- **صحوة الرَّجل المريض أو السُّلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية**، موفق بني المرجة، مؤسسة صقر الخليج - الكويت ١٩٨٤م.

- **صلاح الدين وعصره**، ب. هـ. نيوباي، ترجمة ممدوح عدوان، دار الجندي - دمشق، الطبعة الأُولى ١٩٩٣م.

- **الطَّبقات الكبرى**، محمد بن سعد بن منيع الزُّهري، دار صادر - بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٨٦م.

- **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ابن خلدون، دار البيان، دون تاريخ.

- **عجائب المقدور في أخبار تيمور**، **ابن عربشاه**: شهاب الدين أحمد بن محمد الدِّمشقي، مؤسسة الرِّسالة، الطبعة الأولى ١٩٨٦.

- **العراك بين المماليك والعثمانيِّين الأتراك**، ابن أجا: محمد بن محمود الحلبي، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر - دمشق ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- **العلاقات العربية التُّركيَّة من المنظورين العربي والتركي**، طبع معهد البحوث والدِّراسات العربية، ومركز الأبحاث للتَّاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإسطنبول ١٩٩١-١٩٩٣م،

بإشراف الأستاذ أكمل الدِّين إحسان أُوغلي، والأستاذ الدكتور محمد صفي الدِّين أبو العز.

- **فتح القسطنطينيَّة**، برناردين كلتي، ترجمة شكري محمود ندية، مكتبة النَّهضة، بغداد ١٩٦٢م.

- **القاموس الإسلامي**، أحمد عطيَّة الله، مكتبة النَّهضة المصريَّة، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

- **قيام دولة المماليك الأُولى في مصر والشَّام** أحمد مختار العبادي، بيروت ١٩٦٩م.

- **الكامل في التاريخ**، ابن الأثير الجزري، طبع إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة ١٣٤٨هـ.

- **كتاب الإيضاح والتِّبيان في معرفة المكيال والميزان**، أبو العباس نجم الدين بن الرِّفعة الأنصاري، تحقيق الدكتور محمد أحمد إسماعيل الخاروف، جامعة الملك عبد العزيز، ومركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- **كتاب الرَّوض المعطار في خبر الأقطار**، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مؤسَّسة ناصر للثقافة، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

- **كتاب الرَّوضتين في أخبار الدَّولتين**، شهاب الدِّين المقدسي (أبو شامة)، دار الجيل - بيروت، دون تاريخ.

- ماركوبولو، **قصص الرَّحالة والمكتشفين ٩**، دار المعارف بمصر، دون تاريخ.

- **محمد الفاتح**، الدكتور سالم الرشيدي، مكتبة الإرشاد جدة، ودار العلم للملايين بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٩م.

- **المدخل إلى تاريخ الحضارة**، الدكتور جورج حداد، مطبعة الجامعة السُّورية ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

- **مروج الذَّهب ومعادن الجوهر**، علي بن الحسين بن علي المسعودي، دار الفكر - بيروت، الطبعة الخامسة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

- **المسك الفائح من سيرة محمد الفاتح**، الدكتور علي محمد محمد الصَّلاَّبي، مكتبة الصحابة الشارقة، مكتبة التَّابعين القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- **المسلمون في أوربة في العصور الوسطى**، الدكتور إبراهيم علي طرخان، (الألف كتاب ٥٩٦)، مؤسسة سجل العرب - القاهرة ١٩٦٦م.

- **المظفَّر قُطز ومعركة عين جالوت**، بسام عسلي، دار النفائس - بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- **معجم الأنساب والأُسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، زامباور، مطبعة جامعة فؤاد الأولى ١٩٥١م.

- **معجم البلدان**، شهاب الدين ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

- **معجم الدولة العثمانية**، الدكتور حسين مجيب المصري، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، دون تاريخ.

- **معركة عين جالوت**، الدكتور محمد ضاهر وتر، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- **المنح الربانيَّة على المنح الرَّحمانيَّة**، محمد بن أبي السرور البكري الصدِّيقي، تحقيق الدكتورة ليلى الصَّبَّاغ، دار البشائر، الطبعة الأُولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

- **الموسوعة الثقافية، كتاب الشَّعب**، القاهرة، دون تاريخ.

- **الموسوعة العربيَّة العالميَّة**، الطبعة الأولى الرياض.

- **النُّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (تراثنا) ابن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

-**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيَّة، أو سيرة صلاح الدين**، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف ابن شداد، (تراثنا)، تحقيق

الدكتور جمال الدين الشَّيَّال، الدار المصرية للتَّأليف والترجمة، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

- **الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي**، محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة.

- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، شمس الدين ابن خلّكان، تحقيق الدكتور إحسان عبَّاس، دار صادر - بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٨٧م.

❊ ❊ ❊

